263

HARLEQUIN

روايات أحلام

بيني وبينك

لوسي غوردون

www.elromancia.com
مرمورية

بيني وبينك

عندما نبذها لورنزو مارتيلي أمام مذبح الكنيسة، شعرت هيذر بذل كبير، ولكنها وضعت اللوم كله على أخيه ريناتو لأنه كان السبب ...ثم حدث ما صعقها ...فقد أصر الجميع على ريناتو أن يصلح الوضع ...وطلبوا منه أن يحل محل أخيه في هذا الزواج...

ريناتو رجل قوي الشخصية وليس هناك من يلقي عليه الأوامر، ولكنه شخص يتحمل مسؤولياته لذا علم أنه ملزم أدبياً على الزواج بهيذر...

...ولكن ماذا عنك يا هيذر؛ هل سترضين أن يكون هذا المتغطرس المتعجرف، الزوج البديل؛

لبنان:	2500ل.ل	البحرين:	1دينار
سوريا:	75ل.س.	السعودية:	10ريال
الأردن:	1.5دينار	مصر:	8جنيه
الكويت:	750فلس	المغرب:	15درهم
الإمارات:	10دراهم	تونس:	2دينار
قطر:	10ريال	عمان:	1ريال

ISBN 9953-15-100-5

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Wife by Arrangement
First published in Great Britain 2001
Harlequin Mills & Boon Limited
© *Lucy Gordon 2001*
Translation © Dar El-Farasha - 2002
ISBN 9953 - 15 - 100 - 8

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: ٨٢٥٤/ ١١ هاتف/ فاكس: ٤٥٠٩٥٠-١-٩٦١- بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

لوسي غوردون

بدأت لوسي غوردون عملها في مضمار الكتابة، ككاتبة صحفية في عدة مجلات. أجرت مقابلات مع أكثر الرجال شهرة في العالم بمن فيهم «ورن بتي»، «ريتشرد تشامبرلين»، «روجر مور»، سير «أليك غينيس» وسير «جون غيلغاد». واختبرت في رحلة سفاري إلى إفريقيا، الحياة في العراء مع الأسود، كما عاشت مغامرات غريبة كثيرة شكلت خلفية غنية لرواياتها.

تزوجت من إيطالي التقته في عطلة كانت تقضيها في فنيسيا. عقدا خطبتهما بعد يومين على اللقاء وهما متزوجان منذ خمس وعشرين سنة. يقيمان الآن في «ميدلاندز» مع كلابهما الثلاثة.

نال كتابها His Brother's Child، جائزة الكتّاب الروائيين الأميركيين سنة ١٩٩٨، في فئة أفضل رواية عاطفية تقليدية.

١ ـ أخطر رجل

ـ هيذر... وصل حبيبك الصقلي.

رفعت هيذر بصرها بخجل وارتباك، قائلة: «لورنزو ليس حبيبي. إنه مجرد... مجرد...».

فقالت سالي بمكر: «مجرد صديق؟ حسناً، إذا لم يكن الرجل حبيبك فعليه أن يصبح كذلك. أنه مكتمل الرجولة، وسيم، وعيناه تغريان بالحب، ليته كان حبيبي...».

قالت هيذر مدركة نظرات الفضول التي ترمقها بها النساء في غرفة المستخدمين: «هل لك أن تخفضي صوتك؟».

كانت تتنعم باستراحة بعد الظهر قبل أن تعاود عملها في قسم العطور التابع لأحد أفخم متاجر لندن. أما سالي فتعمل على منصة البيع المجاورة لمنصتها.

وقفت هيذر، تفكر باسمة في لورنزو ماريتلي، الفتى الوسيم، الخلي البال الذي دخل حياتها منذ شهر وقلب كيانها.

وسألت سالي: «لم أعلم أنك ستتعرفين على لورنزو على الفور».

ـ لم أعرفه في البداية، لكنه سأل عنك. كما أنّ ملامحه الصقلية تدل عليه، فهو مثال للرجولة وكأنه يغري المرأة بعينيه. أسرعي بالذهاب إليه أو أذهب إليه بنفسي.

ضحكت هيذر وعادت إلى منصتها، متلهفة لرؤية لورنزو الذي جاء إلى

www.elromancia.com

انكلترا في مهمة تدوم أسبوعين. لكن افتتانه بسحر هيذر الهادىء جعله يبقى، عاجزاً عن الابتعاد عنها. سيخرجان معاً الليلة، وقد سرها أن تراه مبكراً. لكن القادم لم يكن لورنزو.

لورنزو طويل أشقر وأجعد الشعر. في أواخر العشرينات من عمره، أما هذا فقد تجاوز الثلاثين، ويحمل ندبة خفيفة على جانب وجهه كما أن ملامحه بعيدة كل البعد عن الوسامة، ويشوبها شيء من الصلابة.

إنه طويل القامة، متين البنية، عريض المنكبين، أسود الشعر، أسمر البشرة داكن العينين كسكان جنوب إيطاليا. ولكن ملامحه تخفي شيئاً ما، لم تستطع هيذر أن تحدده. وأدركت على الفور ما جعل سالي التي تحكم على الرجال من مظهرهم الخارجي تخطىء، فمن الواضح أنه يحكم على كل امرأة بالطريقة نفسها. وقد بدا ذلك جلياً في عينيه المتكاسلتين، تلك العينين اللتين تحملان سؤالاً غريزياً.. هل ستروقني؟

نعم؟ لا؟ ربما نعم. وهل ستتمنع؟

أجفلت هيذر إزاء نظرته. كانت ملامحها جميلة إنما ليست فائقة الجمال، وشعرها بنياً فاتحاً، لكنه ليس أشقر، كما أن جسمها المتناسق لا يعتبر مثيراً. ورغم بلوغها الثالثة والعشرين من عمرها، لم تسمع قط صفير إعجاب ولم يتأملها أي رجل بنظراته من رأسها حتى أخمص قدميها كما يفعل هذا الرجل. بادرته قائلة:

ـ هل أنت السيد الذي يسأل عني؟

نظر إلى البطاقة المشبوكة على قميصها الأبيض والتي تحمل اسمها وقال: «نعم، أنا هو».

كان صوته غامضاً عميقاً ولكنته جذابة للغاية، لا تشبه لكنة لورنزو الخفيفة والمرحة.

ـ لقد أرسلني صديق اهتممت به مرة هو السيد تشارلز سميث، لكنك لن تتذكريه من بين زبائنك الكثر. أريد أن أشتري هدايا لسيدات عدة من ضمنهن والدتي. وهي في الستين من عمرها ومحترمة للغاية، لكن لعلها تتمنى سراً،

لو أنّ حياتها أكثر إثارة.

فقالت هيذر: «أعرف ما سيعجبها».

وأحضرت له عطراً جريئاً لكنه لا يوحي بالطيش... وتأثرت لتفهم هذا الرجل لحاجات أمه.

أردف معلقاً: «سيناسبها تماماً. ونصل الآن إلى الجزء الأكثر حساسية في المسألة. فلدي صديقة رائعة ومغرية، تتمتع بذوق مترف، اسمها إلينا. شخصيتها متطرفة غامضة وشغوف، أنت تفهمين ما أعني».

وتشابكت نظراتهما. وفي ومضة اكتشفت أنها تستوعب الأمور كلها، ومن ضمنها سر افتتان إلينا بهذا الرجل الذي يتمتع بجاذبية مغرية رغم افتقاره إلى الوسامة التقليدية. ركّزت تفكيرها، وأجابت بسرعة: «تماماً يا سيدي. أقترح عليك عطر (غموض الليل)».

فقال موافقاً من دون خجل: «يبدو هذا مطابقاً لها».

مسحت معصمها برذاذ من العطر، ثم مدته نحوه، فتنشقه ببطء. شعرت بقوة عنيفة مكبوتة وراء سلوكه. وأحست وكأنها في حديقة هادئة، وإذا بها ترى نمراً جاثماً خلف النبات مستعداً للوثوب عليها. قاومت دافعاً حثها على إبعاد يدها. وسمعته يقول: «عطر أخّاذ. سآخذ زجاجة كبيرة منه».

كادت هيذر تشهق، فالزجاجة الكبيرة باهظة الثمن.

ـ ويبقى الآن، سيدة أخرى ذات شخصية مختلفة... مرحة خالية البال.

فقالت هيذر: «قد يناسبها عطر رقص الصيف فهو منعش..».

فسألها بقلق: «لكن، ألا يعتبر ساذجاً؟».

ـ أبداً، فهو يوحي باللامبالاة لكنه راقٍ.

وضعت منه على يدها الأخرى، فاقترب ليتنشق العطر عن معصمها. شعرت هيذر بأنفاسه الحارة على بشرتها فتمنت لو تبعد يدها. لكنها حاولت إقناع نفسها بسخف ردة فعلها المبالغ فيها، فهو لم يكن ينظر إليها، بل أغمض عينيه وكأنه في عالم آخر مع نسائه الأخريات. وهكذا، لم

يحمل سلوكه معنى حميماً على الإطلاق.

ولكنها عادت عن رأيها إذ أن هذا الرجل يعتبر كل شيء شخصياً... سواء أكان ذلك كلاماً جارحاً، قاسياً مهيناً لكرامته أو إشارة حب... ولهذا السبب هو خطر للغاية، أو لعله أخطر رجل عرفته. وعندما فتح عينيه ونظر إليها، أدركت أنها كنت تحبس أنفاسها. تمتم قائلاً: «هذا رائع. من الجيد أن يفهم أحدنا الآخر».

ابتعد قليلاً فشعرت وكأنها تصحو من حلم. لكنها استجمعت قواها، وأجابت: «أحاول أن أفهم زبائني كلهم، يا سنيور فهذا عملي».

ـ سنيور؟ أنت تفهمين الإيطالية، إذن؟

فابتسمت: «أنا أعرف القليل من الإيطالية وحوالى عشر كلمات صقلية أيضاً».

لم تعرف ما الذي جعلها تذكر صقلية، ربما رغبتها في معرفة ما إذا كان الرجل من موطن لورنزو نفسه. ويبدو أن ذلك صحيح بدليل أنه تأملها بتسلية، متمتماً:

ـ ترى لماذا تتعلمين لهجتي؟

فقالت بسرعة: «أنا لا أتعلمها بالضبط. ولكنني حفظت كلمات عدة من صديق».

ـ ولا شك أن صديقك هذا فتى وسيم. ألم يخبرك بعد بأنك «غراسيوزو»؟ (أي جذابة).

فقالت هيذر راجية ألا يكون وجهها قد احمر خجلاً: «أظن أنّ علينا أن نركز اهتمامنا على مشترياتك».

لقد استعمل لورنزو ليلة أمس هذه الكلمة بالضبط، موضحاً إنها إحدى الكلمات الصقلية العديدة والمرادفة للجمال. ما كان لها أن تتحدث على هذا النحو مع رجل غريب، لكنه رجل ساحر، قادر على تغيير دفة الحديث. لم يستطع لورنزو، رغم عواطفه الملتهبة، أن يجاري أسلوبه الناعم المغري في مدحها. فعلق: «أي أنك لم تأخذي المعنى من القاموس، يسرّني أنّ حبيبك

يقدّرك».

لا عجب في أن للرجل حبيبات عدّة إذا كان يتكلم على هذا النحو، ولا شك أيضاً أنهن راضيات. لكنها لم تشأ أن تعترف بأفكارها، فنهارها كان شاقاً، وساقاها متعبتان. سألته:

ـ هل سنكمل ما بدأناه؟

ـ إذا كان لا بد من ذلك.

فنظرت إليه بانزان وقالت: «دعني أوضح الأمر، يا سنيور. أخبرني كم صديقة لديك تحاول إسعادها؟».

فأجاب بابتسامة عريضة جريئة محركاً كتفيه: «وهل هذا يهم؟».

ـ نعم، فكل امرأة تتمتع بشخصية مختلفة.

ـ تماماً. فأنا أريد امرأة لكل مزاج أشعر به. «فمينيتا» مرحة و «جوليا» موسيقية أما «الينا» فمغرية للغاية.

إنه يحاول إرباكها لا شك في ذلك. فعيناه تبوحان بأبعد مما تلفظت به شفتاه، وردّت بسرعة: «حسناً، هذا يسهل الأمور».

ـ بسهُل؟

ـ أعني أنك رجلاً بمزاج ثلاثي فقط.

تنبهت إلى كلامها، فالبائعة الجيدة لا تفكر سوى في المبيع، ولا تجادل الزبون مخافة إحراجه. لكنه لم يستأ إنما بدا مسروراً لجوابها اللاذع.

ـ أنت مصيبة، فثلاث نساء لا تكفي. لدي مكان شاغر لسيدة فطنة وهو يلائمك تماماً.

فردت على الفور: «آه، أنا لن أناسبك على الإطلاق».

ـ أشك في كلامك.

ـ لكنني واثقة تماماً مما أقول.

فرد ضاحكاً: «ولمَ يا ترى؟».

بادلته هيذر الضحك وأضافت: «حسناً! أولاً، لا أرضى أبداً بأن أكون واحدة من مجموعتك وسيكون عليك أن تتخلص من الأخريات».

- أنا واثق من أنك ستجعلين الأمر يستحق العناء.

فقالت بجرأة: «أنا لست برسم البيع».

- نعم، طبعاً! فأنت لديك حبيب.

حبيب!

وتساءلت هيذر في سرّها: «لمَ يصر الجميع على معزوفة الحبيب اليوم».

- لنقل فقط إن لديّ شاب يناسبني.

- وهو من صقلية ما دمت تتعلمين لغته، ما يعني أنك تأملين في الزواج به.

ذعرت وهي تشعر بحمرة الخجل تغزو وجهها، ولكي تستدرك الأمر أجابت بحدّة: «إذا كنت تظن بأنني أسعى وراءه فأنت مخطىء، كما أنني لا أود متابعة الحديث».

- سامحيني. فهذا ليس من شأني.

- وهو كذلك بالفعل.

- لكنني أرجو ألاّ يستدرجك بحجة الزواج، ليتوارى بعدها عائداً إلى بلاده.

- لست سهلة المنال بالنسبة إليه أو لغيره.

أنهت كلامها بسرعة وهي تتساءل عما يجعلها تناقش هذا الموضوع.

- إذن فأنت لم تنجرفي معه. لا أدري إذا كان الأمر تقصيراً منه أم دهاءً منك.

نظرت إليه مباشرة بتحدّ ظاهر فأجفلت مما رأته. إذ بالرغم من كلماته الممازحة، بدت في عينيه نظرة حياد باردة جعلته يظهر كمن يقدر قيمة غرض باهظ الثمن ينوي شراءه.

سألها: «لمَ تختلف ملابسك عن ملابس زميلاتك؟».

كان هذا صحيحاً. فهيذر مكتملة الأناقة وقد سرحت شعرها بعناية ليتناسب مع صبغة المتجر. أما سائر الموظفات الأخريات فيلبسن ثياباً مثيرة نوعاً ما وذلك بتشجيع من مخدومهن.

تمسكت هيذر، بحزم، بملابسها التقليدية المؤلفة من تنورة سوداء، وقميص ناصع البياض. لطالما اقترح عليها مديرها تعديل مظهرها إلا أنها بقيت تمانع. وبما أن مبيعاتها ممتازة، لم يثر الموضوع مجدداً. وعاد الرجل يقول: «أظن أن ذكاءك وكرامتك يأبيان عليك استعراض نفسك أمام الزبائن، كما أن ذكاءك جعلك تدركين أن في تمنّع المرأة إغراء شديد».

كان ذلك هجوماً مباشراً من رجل جريء إلى أبعد الحدود فاستحسنت هيذر ذلك، رغم أنها رأت ضرورة ايقافه عند حدّه. فقالت متزمتة بجدية: «هل يمكنني أن أخدمك بعد يا سيدي؟».

فبادر بالقول: «يمكنك أن تخدميني كثيراً. دعيني أصطحبك لتناول العشاء مثلاً حيث يمكننا أن نتحدث عما قد تفيديني فيه».

- ليس هذا ما عنيته... وأظنني لم أحسن التعبير، أليس كذلك؟

- بل أظنك فعلت، لذا عبّرت بدوري عن اهتمامي. فأنا رجل سخي ولا اعتقد أن صديقك سيتزوجك، بل سيختفي حتماً تاركاً إياك محطمة.

عندئذ، لم تستطع هيذر السكوت.

- وهل سأفرح عندما تغادرني برأيك؟

- يعتمد الأمر على ما يجعلك تبتهجين لنبدأ بعشرة آلاف جنيه، فما رأيك؟ اكشفي أوراقك وقد تكسبين الكثير مني.

- أظن أنّ عليك الرحيل، فلست مهتمة بك أو بمالك. وإذا أضفت كلمة أخرى فسأستدعي رجال الأمن.

- سأعطيك عشرين ألف جنيه.

- هل تريد مشترياتك يا سيدي أم أنك غيرت رأيك، بعد أن علمت أنك لن تحصل مني على شيء؟

- وما هو رأيك؟

- رأيي أن تفتش عن امرأة تبيع نفسها، فأنا أبيع العطور فقط. وأفهم من كلامك أنك لم تعد تريد هذه الأشياء.

فهزّ كتفيه: «لن يكون في أخذها فائدة تذكر، أليس كذلك؟ طبعاً يؤسفني

أن تضيع منك. العمولة التي كنت ستتقاضينها».

فقالت بتمهل بالغ: «انسَ أمر العمولة! والآن وداعاً، فالمتجر يوشك على الإقفال. ولا تعد مجدداً».

ابتسم ابتسامة عريضة على سبيل التحدي ثم خرج كما لو أنه أنجز مهمة لن تعرف هيذر ماهيتها.

كانت خائفة منه ومن نفسها معاً لأنه جعلها تعلق الكثير من الآمال على العمولة، ولأنه أهانها.

والأسوأ من ذلك بكثير هو أنه استطاع أن يقنعها، للحظة وجيزة، بجاذبيته. لقد استمتعت، من ناحية، بتلك اللعبة المرحة البريئة بظاهرها وإذا بها تفاجأ بتلك النظرة الباردة في عينيه، فأدركت أن المرأة التي تستسلم لهذا الرجل من أجل المال، هي حمقاء بما للكلمة من معنى.

وأسرعت إلى بيتها، فشريكتها ليست في الشقة، وبهذا تسنى لها البقاء وحدها استعداداً للخروج مع لورنزو ماريتلي، الفتى الذي دعته سالي حبيباً ولكنه لم يحاول استغلالها، فتضاعفت محبتها له.

خلال الشهر الذي عرفته فيه بدت مسحورة بحقيقة أجمل من الخيال، لا تشوبها أي شائبة من مرارة الواقع. لم تسمه حباً، فالكلمة تذكرها بـ «بيتر»، وبتلك الآلام المبرحة التي ذاقتها حين تركها بفظاظة. كل ما تعرفه أن لورنزو أنساها حزنها بظرفه.

لقد تعرفت إليه من خلال بائع في قسم المنتوجات الغذائية التابع لمتجر «غوسوايز». ويتاجر «آل مارتيلي» بخضار وفاكهة جزيرة صقلية التي يزرعونها في حقول شاسعة. عيّن لورنزو حديثاً مديراً إدارياً، فراح يزور زبائنه للتعارف فتم اللقاء بينهما. كان لورنزو يقيم كملك في فندق ريتز الذي يصطحبها أحياناً للعشاء فيه، وأحياناً أخرى يقصدان مكاناً متواضعاً على ضفاف النهر. كان يغمرها بالهدايا المختلفة، بعضها ثمين والبعض الآخر سخيف، فيقدمها لها عربون تقدير. لم تكن تعلم ما يحمله لها المستقبل، فلورنزو من النوع الذي يشق طريقه بوسامته وظرفه، ولا بد أن عشرات الفتيات في بلاده سيصبن

بخيبة أمل إذا ما تزوج. لم تكن تعقد آمالاً على الزواج منه طبعاً، فهي تعلم أن لورنزو بسحره وتقديره لها غيّر نظرتها إلى الحياة، لذا فعندما يتركها عائداً إلى بلده، ستتمكن من مواجهة الأمر بشكل ما.

هذا المساء، وجدت رسالة منه على المجيب الآلي يحثها على ارتداء الثوب الحريري السماوي الذي قدّمه لها هدية، والذي يبرز زرقة عينيها الداكنتين، ويضفي على وجهها تألقاً.

كالعادة، وصل قبل الموعد بخمس دقائق، حاملاً وردة حمراء قدّمها لها، مع عقد من اللؤلؤ يتناسب مع ثوبها الأزرق.

ابتسمت بسعادة لمرآه فهو طويل القامة وسيم، يتجاوز طوله الستة أقدام، ذو ضحكة رنانة وابتسامة عريضة تبنيء عن حسن نواياه، وتدعو العالم كله لمشاركته فرحه. قال لها:

ـ لدي الليلة مناسبة هامة. فلقد جاء أخي الأكبر، ريناتو، من صقلية.

وأضاف بأسف وحزن: «كان علي أن أعود إلى وطني منذ أسبوعين. إنه يعلم أنني بقيت هنا من أجلك، ويريد الآن التعرف إليك. سنحل ضيوفاً عليه في فندق «ريتز» لهذه الليلة».

ـ ولكننا كنا سنذهب إلى المسرح...

ـ هل تتضايقين إذا لم نفعل؟ لقد أهملت أعمالي في المدة الأخيرة...

ونقر بإصبعه على وجنتها مضيفاً: «وكل هذا ذنبك».

فسألته ضاحكة بصوت منخفض: «أتراك ستلقي بي في عرين الأسد».

فأحاطها بذراعه: «بل سنذهب سوياً».

أثناء رحلتهما القصيرة إلى فندق «ريتز»، أخذ يتحدث عن أخيه الذي يدير ممتلكات الأسرة في الوطن. لقد رفع بدهائه واجتهاده نتاج كروم العنب والزيتون ثلاثة أضعاف، كما اشترى الأراضي، رافعاً اسم مارتيلي إلى القمة بفضل جودة منتوجاته المتوافرة في كل متجر فخم أو فندق في كل أنحاء العالم. عندئذ قال لورنزو متذمراً:

ـ إنه لا يفكر في شيء سوى العمل. وكيف يحصل على المزيد والمزيد

من المال. . . أما أنا، فأفضل إنفاقه.

ـ أنا واثقة من أنه يعلم ذلك. ولذا، يريد أن يعلم على من تنفقه.

ولمست عقد اللؤلؤ الجميل والثمين.

ـ ستعجبينه صدقيني.

لدى وصولهما إلى الفندق، ساعدها على النزول من التاكسي هامساً: «لا تخافي منه».

ـ لست خائفة، وماذا عنك؟

ـ أبداً. لكنه رأس العائلة، وهذا مهم جداً في صقلية. مهما كان عنيفاً، فسيبقى دوماً أخي الأكبر الرائع الذي يلازمني ويساعدني على حل مشاكلي.

كانت هيذر تتحرق شوقاً لمقابلة ذلك الرجل البالغ الأهمية في حياة لورنزو. تأملت المطعم الفخم، بنوافذه الرخامية الممتدة على طول الحائط والتي تتدلى عليها ستائر حمراء سميكة.

في زاوية بعيدة، جلس وحده إلى مائدة الطعام ونهض لدى اقترابهما منه راسماً على وجهه ابتسامة ترحيب مهذبة. جاهدت هيذر لمبادلته التحية فيما غمرتها موجة من السخط.

حيّاها «ريناتو مارتيلي» وهو ينحني أمامها باحترام: «مساء الخير، يا سنيورينا يسرني التعرف إليك».

فسألته ببرودة: «تعني التعرف إليّ مجدداً، أليس كذلك؟ فلا بد أنك لم تستطع نسيان مواجهتنا عصر اليوم في «غواسوايز»».

فسأل لورنزو مستغرباً: «ما هذا؟ هل تعارفتما من قبل؟».

أجاب أخوه: «نعم اليوم باكراً. كنت متحرقاً لرؤية السيدة التي سمعت الكثير عنها. ولهذا اتخذت ذريعة وأرجو المغفرة».

صافحها مبتسماً فنظرت إليه بجفاء قائلة: «سأفكر في ذلك».

سحب ريناتو كرسياً لتجلس عليه. ثم جلس الثلاثة معاً، فسأل لورنزو وهو ينقل بصره بينهما: «وما هي تلك الذريعة؟».

فأجابت هيذر: «جاء أخوك إلى المتجر بصفته زبوناً».

ـ فكرت في أن نقيّم بعضنا البعض في جو طبيعي.

فتمتمت هيذر: «نقيّم بعضنا البعض؟».

فقال: «أنا واثق من أنك كونّت عني فكرة خاصة».

فطمأنته قائلة: «نعم لقد فعلت بكل تأكيد».

لم تشأ هيذر استكمال النقاش، فالمسألة لم تتهِ بعد لكنها لا تود إظهار استياءها. أتى نادل بقائمة الطعام، وبعد تلقيه الطلب، أضاف «ريناتو»:

ـ وزجاجة عصير من أفخر ما لديك.

أشرق وجه لورنزو دلالة على موافقته، أما هيذر فاشتعلت غيظاً. هل من المفروض أن تقفز فرحاً لمجرد أنّ ريناتو ألقى إليهما بفتات من فضله؟

ما كانت لتتوقع قط أنهما أخوان. تعلم أن جزيرة صقلية قد تعرّضت على مرور السنوات، لغزوات متعددة من الاغريق، والعرب، والإيطاليين، والفرنسيين، والأسبان السلتيين فاختلطوا بسكانها الأصليين. كانت ملامح لورنزو الجميلة قريبة من الإغريق، بعينيه الزرقاوين وشعره البني، ورشاقته برغم بنيته الضخمة. وتكهنت هيذر بأن ريناتو من صنف الرجال الذين يبلغون سن الرجولة في سنوات مراهقتهم الأولى، إذ يصعب عليها أن تتصوره فتياً. ربما منحه أجداده الإيطاليون هذه الحيوية البالغة، لكن الغطرسة والترّفع ورثهما حتماً من دم إسباني، كما ورث من السلتيين، وهم سكان ايرلندا وويلز واسكوتلندا الأصليين، قوة التعبير في ملامحه، والشهوانية التي تتجلى في فمه الكبير.

كانت ملامحه قاسية وغير اعتيادية ويستحيل مقارنته للوهلة الأولى بوسامة أخيه، لكن ومضة عينيه القاتمتين تحملان شيئاً ما ابعد من الوسامة التقليدية فجسمه صلب ورياضي تبرزه بذلته الباهظة الثمن. لا شك في أنه يدير رؤوس النساء حتى ولو عجّت الغرفة بمئات الشبان الوسيمين. رفع ريناتو كأسه قائلاً لهيذر: «نخب لقائك».

فردّت مستبدلة كلماته عمداً بأخرى: «نخب اجتماعنا».

بدت على وجهه ومضة خفيفة قد تكون إشعاراً بأنه فهم مقصدها.

أثناء تناولهم الحساء، وسمك السلمون المدخن، تحدث ريناتو عن إقامة لورنزو التي طالت في انكلترا.

- كان عليه أن يعود منذ أسبوعين، فبدأت أتساءل عن القوة التي تبقيه هنا إذ لا بد أنها امرأة. فللمرة الأولى، أسمعه يتحدث عن الزواج...

فتأوه لورنزو مجيباً: «ريناتو!».

فقاطعته هيذر: «إنه يحاول إحراجك».

فقال ريناتو بإعجاب: «يبدو أنك تفهمين بالغريزة، يا سنيوريتا».

- لست بحاجة إلى غريزة، فالخبرة معك تكفي. لقد أمضيت العصر بطوله محاولاً إحراجي. أنت تتمتع بإرباك الآخرين.

رفع كأسه بتحية ساخرة، فيما بدت عيناه فجأة أكثر صلابة ويقظة.

- تهانينا. أرى أن علي أن أحذر منك.

فأومأت بعذوبة ساخرة: «يا لها من فكرة حسنة، هيا، استمر... راح لورنزو يتحدث عن الزواج، فأسرعت أنت إلى انكلترا لترى إن كنت مناسبة له».

فصحّح لها: «بل جئت لأكتشف ما إذا كنت بالروعة التي يصفها فوجدتك كذلك!».

قالها بنعومة لم تفتها، فأمامها رجل لا يفعل شيئاً من دون مبرر. أما إذا ظن أنها ستسهل عليه الأمر فهو مخطىء.

وتحدّته بابتسامة عريضة، قائلة: «فلنكن صريحين. لورنزو ينتمي إلى أسرة عريقة ويمكنه أن يتزوج من فتاة غنية. لذا عندما وجدته مهتماً ببائعة متواضعة في متجر انتابك الخوف. هذه هي الحقيقة يا سنيور مارتيلي، أما الباقي فهو ثانوي».

تأوه لورنزو ملقياً رأسه بين يديه، بينما احمر وجه ريناتو قليلاً: «الآن، أنت التي تقومين بإحراجي».

فتمتمت تقول: «وكلامي ليس شيئاً، أيضاً».

ردّ عليها بابتسامة عريضة فأجفلت. كانت ابتسامته متألقة مفعمة بالرجولة، صادرة من عمق أعماقه، ثم قال: «سأكون صريحاً بدوري. قلت بائعة في متجر متواضع؟؟ أنت تعرفين التواضع أكثر مني. أنت امرأة قوية، ومتغطرسة، تظن أن بإمكانها أن تدير العالم كله وتنجح، وأنت تعتقدين أن بإمكانك إلحاق الهزيمة بي وقد تكونين محقة».

فقالت عندئذ بمرح: «أنت تظنني سأواجهك، ولكن هل سأفعل؟».

- لا أدري. لم أقرر بعد.

فقالت بسخرية أوحت بعكس كلامها: «انتظر قرارك وأنا أرتجف».

قال لورنزو: «تلك هي الشجاعة، يا عزيزتي. لا تدعيه يخيفك».

فأوضح له ريناتو: «دعها تخوض معركتها بنفسها، فهي أكثر من قادرة على ذلك».

وتابع مخاطباً هيذر: «أنا أعرف الكثير عنك. تركت المدرسة في السادسة عشرة من عمرك وعملت في محل لبيع الصحف. تنقلّت على مدى أربع سنوات من عمل لآخر، حتى وصلت إلى متجر «غواسوايز» منذ ثلاث سنوات. بحثت عن مكان لك في منهاج التدريب أملاً في الوصول إلى وظيفة إدارية ولكنهم رفضوا بحجة عدم حيازتك شهادة جامعية. وهكذا بدأت في إثبات خطأهم، فاجتهدت في عملك، ودرست لغات أجنبية، وبقيت تلحّين في الطلب حتى استجابوا اخيراً لطلبك نظراً لارتفاع أرقام مبيعاتك، فقدموا لك مكاناً للتدريب في المنهاج التالي. بائعة في متجر متواضع! أنت امرأة مذهلة».

عندئذ قال لورنزو: «ما هذا؟ لم أكن أعرف هذه التفاصيل».

فقالت له هيذر: «لقد تطفل أخوك وسأل عني رئيس المكتب في متجر «غوسوايز».

فأعلن ريناتو: «يسمّى هذا جمع معلومات».

فردّت بحزم: «لا بل تطفل. وهو تصرف منافٍ للآداب».

أومأ لورنزو موافقاً: «نعم، إنه كذلك. أنت لا تظنينني فعلت شيئاً كهذا،

أليس كذلك يا عزيزتي؟».

فقال ريناتو له بلهجة لاذعة: «لأنك لم تفكر في ذلك».

شعرت هيذر برغبة مفاجئة في الهرب من الرجلين، لتتمكن من التنفس بحرية، فقالت وهي تنهض: «أرجو المعذرة».

ذهبت إلى استراحة السيدات، فجلست تحدق في صورتها في المرآة، متسائلة عما يجعل العالم كله يسير بشكل خاطىء. إنها محط اهتمام رجلين جذابين مما يجعلها امرأة محسودة.. لو كانت وحدها مع لورنزو لاعتبرت نفسها محظوظة، إلا أن وجود ريناتو مارتيلي جعلها تشك بحظها.

* * *

٢ ـ زوجة الأخ

عندما ابتعدت هيذر عن الرجلين أعلن ريناتو: «تهاني، إنها فاتنة».

ـ هل أعجبتك حقاً؟

ـ نعم، أظنها تثير الإعجاب. حسناً، توقعت فتاة رخيصة إنما هذه سيدة بكل معنى الكلمة. إنها المرة الأولى في حياتك التي تخرج فيها مع امرأة مثلها. لقد حان الوقت لكي تستقر.

فردّ لورنزو بسرعة: «رويداً، إنك تستعجل الأمور. لماذا أخبرتها أننا تحدثنا عن الزواج؟»

ـ لأنك فعلت.

ـ بل قلت إنني لو فكرت في الزواج، سيكون ذلك من فتاة مثلها، فالزواج خطوة هامة جداً.

ـ انه سبب كافٍ لتتخذ هذه الخطوة في سن الشباب، لكي تتأثر بامرأة صالحة.

ـ ولكنك لم تفعل.

عندها ابتسم ريناتو بمكر: «عدا أمي، لم تؤثر عليّ امرأة قط».

ـ ليس هذا ما سمعته. ألم يكن اسمها لينا...؟

ـ حسناً حسناً.

وسكت بسرعة وهو ينظر إلى التعبير الذي بدا على وجه أخيه الذي أعلن ببرودة:

www.elromancia.com

ـ لينا كونتي لم تؤثر عليّ. لقد علمتني أن العلاقة الدائمة لاتناسبني ولكن الأمر مختلف معك إذ برغم تصرفاتك الطائشة، يمكنك أن تكون زوجاً ممتازاً.

ـ آه، لا. فأنا أفهم لعبتك. على أحدنا أن يتزوج لكي ينجب وريثاً لأسرة مارتيلي لذا قررت أن تجعلني كبش المحرقة. حسناً، لن تفلح في ذلك، فأنت البكر ويفترض بك أن تتزوج.

ـ إنسِ ذلك، فحالتي ميئوس منها بحيث لم يعد ينفع معي الدعاء أو الرجاء.

فقال لورنزو ساخطاً: «أنت لا تريد التخلي عن حياتك الممتعة مع كل السيدات المفتونات بك».

فأجاب أخوه معترفاً: «الإخلاص لشريك واحد لا يناسبني».

ـ ولماذا لا يستطيع «برناردو» أن يحافظ على نسل الأسرة؟ فهو أخونا.

ـ أخونا غير الشقيق. لأنه يحمل دم أبينا من دون اسمه نتيجة ظروف مولده. كما أنه ليس ابن والدتنا وبالتالي لن يكون أولاده أحفادها. لا، المفروض أن يكون واحد منا، وقد تبين انك العاشق بيننا.

ـ نعم، ولكن...

ـ اصمت... إنها عائدة، لا تكن أحمق، وتأكد من نواياها تجاهك.

نهضا مرحبين بهيذر، وقبّل لورنزو يدها. لقد استعادت توازنها وتقبلت تقديره لها بابتسامة، من دون أن تتخلى عن حذرها.

أثناء تناولهم الطعام، ألقى عدد من الزبائن التحية عليهم وراحوا ينظرون إلى هيذر بفضول ما جعلها تشعر بالخجل والإرتباك. شعرت وكأنها مشت في مياه ضحلة، وإذا بموجة عارمة تكتسحها. كان الجو ينبيء بقرب حدوث شيء ما لم تفهمه.

وأخيراً، ذهب الزبائن جميعاً. وبينما هي تستمتع بتناول التحلية، قال ريناتو: «لورنزو، أرى هناك «فيليب دي ستيفانز»، إنه الرجل الذي تود لقاءه».

عندما ذهب لورنزو، نظرا إلى بعضهما البعض، فقا ل ريناتو: «ظننتك ستقدرين هذه الفرصة لكي تخبريني رأيك بي بالضبط».

ـ إذا أنا فعلت هذا، فسنبقى هنا طوال الليل.

فضحك قائلاً: «إستمري أرجوك».

ـ من أين أبدأ؟ وأين أنتهي؟ وقاحتك في التدخل بشؤوني مع رؤسائي، ثم عصر اليوم في المتجر... أظن أنك لفقت قصة تشارل سميث، أليس كذلك؟

ـ أجل بكل أسف.

ـ كنت تختبرني لاكتشاف ما إذا كنت لائقة به.

ـ كنت متلهفاً لرؤية المرأة التي أثرت على أخي بهذه الطريقة. لو أخبرتك بهويتي لما تصرفت بعفوية تامة. كنت أرغب برؤيتك من دون أن تحاولي التأثير علي.

ـ خداعك لي يستحيل تصديقه. ما الذي جعلك تعتقد أنني سأحاول التأثير عليك؟

ـ أعلم أنك ذكية بما يكفي لكي تعلمي أن الزواج من أخي سيمر بي أولاً!

ـ أنت تفترض دوماً أنني أريد الزواج بأخيك ولكنني لا أظنني أفكر بذلك، خصوصاً وأنني سأغدو قريبتك.

ـ أعترف بأنني ارتكبت حماقة، ولكن قد تصفحين عني عندما تسمعين ما سأقوله. لقد أعجبتني تصرفاتك كثيراً وخصوصاً عندما امتنعت عن الشراء وخسرت عمولة كبيرة. لقد سيطرت على نفسك بشكل رائع.

ـ هل تعمدت القيام بذلك؟

ـ طبعاً. ولقد تفوقت أنت في الامتحان، أعتقد أن طبيعة لورنزو الرومنسية والمندفعة ستتناسب مع طباعك الانكليزية الهادئة. تهاني. لقد كسبت احترامي بسلوكك المستقيم.

فقالت غير مبالية بإطرائه: «أما أنت فستكسب طبق التحلية هذا على

رأسك».

ثم تابعت تقول: «أنت، في الواقع... في الواقع..».

فأشار ريناتو إلى النادل قائلاً: «لقد فرغت السيدة من الطعام، يمكنك أن تحضر القهوة».

ـ لا...

عاد عن كلامه عندما رأى اللمعان في عيني هيذر.

ـ الأفضل أن نؤجل القهوة إلى ما بعد.

عندما أصبحا وحدهما مرة أخرى، التفت إليها، قائلاً:

ـ أرجوك أن تهدىء فالإنطباع الذي كونته عنك جيد جداً.

ـ أما الرأي الذي كوّنته أنا عنك فمختلف. ما قلته لي...

ـ أردت أن ألمس رد فعلك نحو المال.

فقالت بحدة: «تريد أن تعلم ما إذا كنت صائدة ثروات؟».

ـ تختارين الكلمات القوية ولكن المعنى واحد.

لطالما تفاخرت هيذر بعقلانيتها، لكنه أزعجها إلى حد أنها رغبت في متابعة النقاش، فباتت الكلمات تخرج من فمها من دون حسبان.

ـ كنت ستبدو أحمق لو وافقت على الخروج معك، أليس كذلك؟

ـ لماذا؟ هل كنت ستتكئين بوعدك؟ أظنك امرأة تحافظ على كلمتها. فإذا وعدت أن تكوني لي فستكونين... كنا سنستمتع معاً...

ـ آه، حقاً؟

ـ أؤكد لك.

ـ ربما تحب أن تزودني بشهادة موقعة من «إلينا» ونسائك الأخريات.

ـ أظنهن سيكفلنني...

ـ لا بد أنهن سيكفلنك في جميع الأحوال لقاء ما تدفع لهن ثمنه، أليس كذلك؟

أصابه قولها في الصميم وسرّها أن تلحظ بريق عينيه الغامضتين، ثم أضاف بعد لحظة: «عليّ أن ألوم نفسي لأنني سمحت لك بابراز مخالبك في

وجهي. حسناً، لقد قدمت لك عرضاً حقيقياً وانتهى الموضوع».

ـ لا يهم رأي لورنزو؟

ـ لو قبلت لأدّيت له خدمة وكان سيعترف لي بالجميل.

ـ يرى الناس الأشياء بمنظارك أنت دوماً، أليس كذلك؟

ـ نعم مع الوقت والإقناع.

فنظرت إليه بجفاء: «وهل تعني أنك قادر مع الوقت والإقناع، على إغرائي؟».

فانتبه فجأة لكلامه: «لا أدري».

فجأة، تملكتها الإثارة فاللعبة بينهما اشبه بالشطرنج. وبدهاء، ردت قائلة: «ربما لأنك لم ترفع الثمن بما يكفي».

ـ ماذا تقولين؟

ـ ألا تدري أن المرأة التي تبدو شريفة تريد ضعفي ما تطلبه أخواتها غير الشريفات؟

فقال بنعومة: «آه، نعم أعلم. ماذا دهاك الآن؟».

ـ اقترب مني، وسأخبرك.

قرّب رأسه منها ببطء، فمالت إليه حتى لامس شعرها وجهه، ولفحت أنفاسها خده، ثم همست: «ما كنت لأقبل بك حتى لو كنت آخر رجل على الأرض، فاذهب إلى الجحيم وخذ أموالك معك».

التفت إليها وتشابكت عيناهما. الذهول جعل عينيه الفولاذيتين باردتين، وقال: «أنت مليئة بالمفاجآت، ولديك شجاعة بالغة».

ـ لست بحاجة إلى الشجاعة. فأنت لا تستطيع إيذائي لأنك لا تملك ما أريد.

ـ عدا زواجك من لورنزو، فأنا دقيق جداً في اختيار افراد أسرتي...

فقالت غاضبة: «قد يريحك أن تعلم أن لا أحد سيطلب منك اختياري. وأنا أرجو ألاّ يفكر لورنزو في مسألة الزواج بي، لأن جوابي سيكون «لا». وأنت هو السبب».

ـ هيذر . . .

جاء صوت لورنزو المذعور من خلفها. لقد عاد وهي تعلن قرارها، فانتصبت واقفة وقالت:

ـ آسفة لورنزو، لكن الأمر انتهى بيننا. جمعنا شعور متبادل، لكنها مجرد قصة خرافية. وجاءت الآن الحقيقة. والحقيقة تتمثل بأخيك المقيت.

فأمسك ذراعيها وقال: «لا تذهبي حانقة، فأنا أحبك».

ـ وأنا أيضاً ولكنني أفضّل الوداع.

ـ بسببه؟ ولماذا؟

ـ إسأله، وليخبرك إذا كانت لديه الجرأة.

انتزعت نفسها من يديه وابتعدت كالعاصفة. حاول لورنزو أن يلحق بها لكن ريناتو زمجر قائلاً: «دع ذلك لي».

جعل الغضب هيذر تحث الخطى حتى أصبحت في منتصف الردهة قبل أن يدركها ريناتو ويمسك ذراعها قائلاً: «لا تكوني سخيفة».

ردّت بانفعال وهي تنفض ذراعها من يده: «لا تتهمني بالسخافة. . . السخافة هي اعتقادك أن بإمكانك تسيير الآخرين كما تحرك أحجار الشطرنج».

فأجابها: «حتى الآن لم أجد صعوبة في ذلك».

ـ هذا ما ظننته. لكنك لم تكن تعرفني.

ـ هذا صحيح. . .

ـ كان لقاءً قصيراً وغير سار.

وابتعدت بحدّة نحو الشارع. كان ضجيج حركة المرور في الليل في بيكاديلي يصمّ الآذان وأدركها ريناتو عند الباب وأمسك بيدها مرة أخرى، مقترحاً:

ـ أرجوك يا هيذر. عودي إلى الداخل ودعينا نناقش الأمر.

ـ لا أشعر بالهدوء بل برغبة في تحطيم شيء ما على رأسك.

ـ أنت تعاقبين لورنزو لأنك غاضبة مني وهذا ليس عدلاً.

ـ لا، ليس عدلاً. لا يجوز أيضاً أن يكون له أخ مثلك، لكنه متعلّق بك. على أيّ حال لست كذلك، وأريد أن تبقى الأمور على هذا الشكل.

ـ لا بأس أهينيني إذا كان هذا يرضيك. . .

ـ إهانتك تمنحني سروراً لا يمكنني وصفه.

ـ لا تفعلي هذا بلورنزو.

ـ ولكنني أفعل هذا من أجله. سنسبب التعاسة لبعضنا البعض. والآن، هل لك أن تدعني أذهب، من فضلك؟ أم أصرخ مستنجدة بالشرطة؟

حرّرت ذراعها بعنف ثم اندفعت إلى الرصيف، لتعبر الطريق وتستقل سيارة أجرة. منعها الغضب من الاحتراس، وتناهى إليها من ضجيج السير صوت ريناتو المذعور وهو يناديها ولم تر السيارة المندفعة نحوها، بل وهج الأنوار في الظلمة، ثم أمسكها ريناتو وأدارها جانباً بعنف. وصرخ شخص ما، ثم علا أزيز المكابح. وفي اللحظة التالية كانت ملقاة على الطريق.

للحظة لم تستطع التنفس، ولكن لم يبد عليها أنها أصيبت. وتجمّع الناس من حولها واندفع لورنزو من بينهم، صارخاً:

ـ هيذر. . . يا إلهي، آه، يا إلهي!

لم يكن ينظر إليها بل إلى أخيه الملقى على الطريق.

كبحت شعورها بالغثيان، فلقد كان ريناتو ينزف بقوة كما لو أن شرياناً في ذراعه انقطع. إذا لم يسارع إليه أحد، فستكون فرص نجاته ضئيلة. نادت لورنزو: «أعطني ربطة عنقك بسرعة».

نزعها من عنقه بينما أخذت تبحث في حقيبة يدها عن قلم. كان رأسها يدور، لكنها استجمعت قواها محاولة تضميد ذراع ريناتو بسرعة. احكمت عقد ربطة العنق فوق الجرح وجعلت القلم في العقدة ثم أخذت تفتله. كانت عينا ريناتو مفتوحتين تتابعانها غير أنها رفضت أن تفكّر في أيّ شيء آخر. أخذت تبرم وتبرم فيما راحت ربطة العنق تضيق حول الذراع إلى أن خفّ النزيف حتى توقّف نهائياً. وشهقت: «لورنزو. . . ».

فأجاب وهو يستلم عنها المهمة: «نعم، سأمسك بها الآن».

ـ شكراً.. أشعر بشيء من...

وكان رأسها يدور.

تمتم ريناتو: «لا. لن يغمى عليك».

ـ ألن يغمى عليّ؟

ـ امرأة مثلك لا تصاب بالإغماء. إنها لا تضعف أبداً.

كان صوته بالكاد مسموعاً لكنها سمعت كل كلمة وصرخت بالمتفرجين: «دعونا نمر، رجاءً».

وفجأة وصلت سيارة الاسعاف، وشق المسعفون طريقهم لنقل الجريح. كما حضرت الشرطة لاستجواب السائق الذي استنكر الاتهام الموجّه إليه، وأرغمت هيذر نفسها على القول:

ـ لم يكن ذنبه لأنني ركضت أمامه.

فقال الشرطي: «لا بأس يا سيدتي. ستتحدث في المستشفى».

ساعدها لورنزو على الصعود إلى سيارة الإسعاف، ثم جلس بجانبها. خلع سترته ولفها بها للتخفيف من أثر الصدمة عليها. أما ريناتو فكان مخبقاً والدم يغطي وجهه الشاحب كالموتى. لذا وضع أحد رجال الإسعاف قناع الأوكسجين عليه. فتح عينيه أخيراً ناقلاً بصره بين هيذر ولورنزو وكأنه يوجه رسالة إلى أحدهما أو كليهما ربما.

في المستشفى نقلوا ريناتو إلى قسم الطوارىء فيما جرى الاعتناء بخدوش هيذر التي توجهت بعد ذلك إلى لورنزو الذي كان يتحدث في الممر مع شرطيين.

كرّرت ما قالته سابقاً مبرئة السائق. وأخيراً ذهب الشرطيان وبقيت وحدها مع لورنزو فوضع ذراعه حولها وسألها: «هل أنت بخير، يا عزيزتي؟».

ـ نعم، مجرد خدوش. وماذا عن ريناتو؟

فأجاب مشيراً إلى الباب المقابل: «إنه هناك. لقد أوقفوا النزيف ونقلوا

إليه دماً. عليه أن يبقى هنا عدة أيام، لكنه سيشفى».

وظهر الطبيب: «يمكن لأحدكما الدخول دقيقة».

ـ أنا أخوه، وهذه خطيبتي.

ـ لا بأس. ولكن حاولا الحفاظ على هدوئكما.

بدا ريناتو، من دون ملابسه الملطخة بالدم أحسن حالاً. لكنه ما زال شاحباً للغاية. كان مستلقياً من دون حراك، مغمض العينين باستثناء صدره الذي كان يعلو ويهبط بخفة. فهمس لورنزو: «لم أره قط في مثل هذه الحالة. فهو دائم الحركة يصدر الأوامر هنا وهناك. ما الذي قاله لتندفعي كالعاصفة؟».

ـ لا أتذكر تماماً. ومهما كان السبب لا يحق لي أن أعرض حياته للخطر كل ما أعرفه أنه راح ينزف بقوة وأنقذته.

ـ شكراً يا حبيبتي. أعلم أنه مزعج أحياناً. لكنه في الواقع، شخص طيب. حمداً لله على وجودك هنا.

تأثرت بإيمانه بها، شاعرة في الوقت نفسه بالذنب.

ـ لو لم أكن هناك لما حدث كل هذا.

جلسا معاً وهما يشعران بالدفء والراحة. وسألها بعد لحظة: «هل غضبت لأنني دعوتك خطيبتي؟».

ـ لا. لم أغضب.

ـ هل تحبيني بما يكفي لتصفحي عن ريناتو وتبقي معي؟

عندئذ فتح ريناتو عينيه وأخذ يراقبهما فقال يستحثها: «قولي نعم. لا تخذلينا».

ـ أخذلكم؟

ـ إذا تزوجت شخصاً من أسرة مارتيلي، فلقد تزوجتنا كلنا.

فقال لورنزو متعهداً: «سأكون زوجاً صالحاً إلى حد يجعلك تتصالحين مع ريناتو».

فسألها ريناتو: «ماذا تريدين أكثر من ذلك؟».

فقالت باسمة: «لا شيء. أظن بإمكاني المجازفة».

ومنذ تلك اللحظة، تسارعت الأحداث في حياتها. لقد اكتسحتها في تلك الليلة المشؤومة موجة عاطفية عارمة جعلتها ترضى بالزواج بلورنزو.

باتت تنتمي اليوم إلى أسرة مارتيلي بدليل أن ريناتو صافحها بيده السليمة بحرارة وقال: «الآن، سيصبح لي أخت».

في غضون أربع وعشرين ساعة، زيّن يدها اليسرى خاتم ماسي كبير. وبعد يومين، ودّعت الأخوين في مطار لندن، مدركة أن تذكرتها محجوزة للشهر المقبل.

وها هي الآن تستقل الطائرة المتوجهة إلى «باليرمو»، وشكوكها السابقة تلازمها. إلى جانبها، جلست الدكتورة «أنجيلا وينهام» أو «أنجي»، صديقتها الحميمة وشريكتها في الشقة التي قالت لهيذر شاكرة: «أنا مسرورة جداً لأنك دعوتني كوصيفة شرف، فأنا متلهفة وممتنة لقضاء بضعة أيام خارج البلاد للراحة».

كانت أنجي ذكية وجميلة، كما أنها اجتماعية. ولا شك أن الدوام الليلي في المستشفى ترك أثراً كبيراً على حياتها العاطفية، لذا تأمل أن تستدرك ما فاتها.

هذا ما فهمته هيذر من ابتسامتها الشقية وتنهدت أنجي بهدوء: «غريب أن تستسلمي لمشاعرك فلطالما كانت هذه عادتي أنا».

ـ نعم، تصرفي لا يتطابق مع شخصيتي الحازمة، أليس كذلك؟ والطريقة التي تصرفت بها تلك الليلة... أقسم أنني لم أعرف نفسي. فأنا هادئة بطبعي ولكنني كنت بالغة التوتر إلى حد أنني شتمته وطلبت منه أن يذهب إلى...

انفجرت أنجي بالضحك: «أنت؟ بالغة التوتر؟ ليتني كنت هناك».

ـ آه صدقيني... حتى أنني أخبرته بأنني أكرهه بما يكفي كي أستغني عن لورنزو لأنه أخوه.

ـ ألم يكن ذلك صحيحاً؟

ـ لا، لم يكن. لكنه أغضبني إلى درجة أنه جعلني أنفوه بأول شيء خطر في بالي.

سألتها أنجي بمكر: «قلت إن لديه شقيقين، أليس كذلك؟».

فضحكت هيذر مازحة: «أنت غير قابلة للإصلاح. لا أعرف سوى ريناتو».

ـ آه، نعم، ريناتو الغول الرهيب.

ـ لأكون منصفة يجب عليّ الإقرار بأنه غول. كنت غاضبة من الطريقة التي تحرّى بها عني، لكنه عرّض حياته للخطر من أجلي. لقد رحب بزواجي من أخيه، واستعاد العطور التي كان قد ألغى شراءها وأرسل شخصاً من الفندق لاستلامها.

ـ أخبريني عن الأخ الآخر.

ـ أخ غير شقيق اسمه برناردو. وهو ابن غير شرعي لأبيه من امرأة متواضعة. كانا معاً في سيارة فقتلا في حادث مفجع، فربّته والدة لورنزو مع ولديها.

ـ يا لها من امرأة مذهلة.

ـ أعرف. إسمها «بابتيستا» وأنا قلقة من رأيها بي وحكمها عليّ.

ـ لكنك أريتني الرسالة الجميلة التي بعثتها لك.

ـ إنها مجرد رسالة امرأة وضعت مشاعرها جانباً لكي تقوم بما تعتبره واجباً. حسناً، لا يمكن أن تعرفي أبداً ما يجول في خاطرها، أليس كذلك؟

فقالت أنجي: «المهم ما يعتقده لورنزو. أنظري، أليست تلك صقلية».

تمكنا من رؤية الجزيرة المثلثة الشكل والقريبة من إيطاليا. أخبرها لورنزو أن الرجل الصقلي هو إيطالي بالدرجة الثانية. وأحياناً يكاد لا يكون إيطالياً. وأضاف قائلاً: «دماء أعراق كثيرة اختلطت في عروقنا بحيث بتنا جنساً قائماً بذاته».

أخذت تبحث عنه حالما غادرتا، هي وانجي، دائرة الجمارك. كان ينتظرهما مع رجل آخر. لوح لها بيده بشوق وركض نحوهما، فأسرعت هيذر

لملاقاته فيما سارت أنجي باسمة وهي تدفع أمامها عربة الحقائب، وترمق الرجل الآخر متفحصة بسرور.

رحّب لورنزو بعروسه، هامساً:

ـ لقد... طال... بعدي عنك... يا حبيبتي.

فقالت: «نعم. نعم».

كان شعورها رائعاً. وأدركت هيذر، بعد دقائق أنها قادمة إلى موطنها. كل شيء في هذا المكان رائع، حتى قبل أن تكتشفه. وهذا يعني أن زواجها من لورنزو هو خطوة صائبة.

قال لورنزو أخيراً مشيراً إلى الرجل الذي يرافقه: «هذا أخي برناردو».

فأردف الرجل: «أخ غير شقيق».

ـ أقدم لك عروسي يا برناردو.

وقدّمت هيذر أنجي إلى لورنزو. وعندما حاول لورنزو تقديم برناردو إلى أنجي، أشار إليه أخوه ضاحكاً: «لقد تعارفنا أثناء... انشغالكما».

فضحك الجميع. استلم برناردو الحقائب وتوجهوا جميعاً إلى السيارة حيث دعا أنجي إلى الجلوس قربه في المقعد الأمامي مبتسماً لها.

لن يرغبا بأن يزعجهما أحد.

اختلطت مشاعر هيذر عليها فإذا بالألوان الممتدة أمامها أكثر تألقاً. فالسماء شديدة الزرقة، والنسيم في منتهى الرقة... انعطف برناردو عن ضواحي «باليرمو» باتجاه الساحل وسرعان ما وصلوا إلى المنزل أو «ريزيدنتيا مارتيلي».

استقامت هيذر في جلستها متلهّفة. لقد حدثها لورنزو عن بيته المشرف على البحر.. لكن كلماته لم تف المكان حقه. المبنى مؤلف من طابقين تتدلى من شرفاته الرحبة مختلف أنواع الورود والرياحين التي تتراقص معاً بألوان مختلفة.

وصلوا إلى طريق متعرج ودخلوا فناء. وركن لورنزو السيارة أمام سلم عريض يؤدي إلى مدخل واسع ينتهي بباب مفتوح على مصراعيه. خرجت من

الباب امرأة متوسطة السن، صغيرة الحجم، ووقفت على قمة السلم مستعينة بعصاها.

قال لورنزو وهو يقود هيذر نحو السلم: «أعرفك بأمي».

بدت «بابتيستا» امرأة متسلطة بالرغم من ضعفها الظاهر، فهي لا تكاد تصل إلى كتف لورنزو. بدت أكبر سناً من عمرها الحقيقي بسبب مرضها. كانت ملامح وجهها حادّة وعيناها الزرقاوان متألقتين. تبينت هيذر فيهما دفئاً عندما طوقتها بذراعيها النحيلتين، وشعرت بقوة لم تتوقعها في احتضانها.

ـ مرحباً، يا عزيزتي. أهلاً بك في الأسرة.

كانت تبتسم بلطف متناه. وحيّت أنجي بالحرارة نفسها: «بعد أن تصعدا إلى غرفتكما، سنتناول معاً بعض المرطبات».

كان المنزل أشبه بقصر بني على طراز العصور الوسطى. فحجارته صفراء رائعة، وممراته طويلة مزدانة بالقرميد والفسيفساء وجدرانه رخامية. تبينت هيذر معالم الثراء والسلطة، في كافة أرجاء المنزل. فلقد شاركت أنجي غرفة واسعة تضم سريرين بأربعة أعمدة تتدلى منها ستائر بيضاء مطرزة مماثلة لستائر أبواب الشرفة التي تمتد تحتها حديقة كبيرة وخلفها أراض شاسعة ممتدة نحو الأفق. سحرت هيذر بألوان الطبيعة المختلفة عن الألوان الباهتة التي اعتادت عليها في انكترا.

ساعدتهما خادمة في إفراغ حقائبهما، ثم قادتهما إلى الشرفة، حيث جلست بابتيستا إلى مائدة صغيرة مستديرة. سحب برناردو ولورنزو لهما كرسيين على الفور. تنبهت الفتاتان إلى وجود مائدة كبيرة مليئة بالكعك، وكوكتيل الفاكهة والسكر والقهوة بالحليب وأشياء أخرى منعهما الذهول من إدراكها. أوضحت بابتيستا: «لا أعلم ما يعجبكما، فأمرت بتقديم أشياء متنوعة».

كان الطعام والشراب لذيذين وتساءلت هيذر عما إذا كانت حيّة قبل المجيء إلى مكان بهذه الروعة. كانت عينا لورنزو متعلقتين بعينيها على

الدوام وهو يبتسم بشكل لا يقاوم فيرغمها على مبادلته الابتسام.

قالت أمه وهي تربت على يده: «يكفي. لديك متسع من الوقت لإظهار عواطفك، يا ولدي، اذهب الآن ودعني أتعرف إلى عروسك».

***

٣ ـ شمس في الظلام

عندما توارى لورنزو، اصطحب برناردو انجي إلى الحديقة فيما أعادت «بابتيستا» ملء كأس هيذر، ثم قالت: «أخبرني ريناتو عن اندفاعك لانقاذ حياته. وأظننا أصبحنا صديقتين منذ تلك اللحظة».

ـ إنه لطف بالغ منك. ولكن ألم يخبرك ريناتو أن تعرّضه للخطر كان بسببي أنا؟

ـ أظنه الملام الأول. لقد أغضبك استبداده وقد عنفته بدوري.

أخفت هيذر ابتسامها لمجرد تفكيرها بتعرّض المستبد ريناتو للتوبيخ من تلك المرأة الضعيفة. هذه الفكرة بدت لها جميلة ولكنها غير مقنعة.

تابعت «بابتيستا» تقول:

ـ ستكونين مهمة جداً لهذه الأسرة، وربما أكثر مما تظنين. يقول لورنزو إن لاعائلة لديك.

ـ كنت وحيدة. ماتت أمي وأنا في السادسة، ولم يستطع أبي مواجهة الحياة من دونها.

وسكتت هيذر. فنادراً ما تتكلم عن حياتها إذ كانت ترى في ذلك خيانة لذكرى أبيها الدمث الذي دفعه شوقه إلى اللحاق بزوجته. وفجأة شعرت برغبة في أن تبوح بمكنونات صدرها لبابتيستا فأكملت: «لقد استسلم لليأس

www.elromancia.com

حتى وافته المنية».

قالت بابتيستا متفهمة: «وهكذا أخذت أنت تعتنين به».

ـ اعتنينا ببعضنا البعض. فلقد كان رقيقاً وتعلقت به كثيراً. لدى بلوغي السادسة عشرة، أصيب بذات الرئة وتوفي. وآخر ما قاله لي كان «آسف حبيبتي».

بكت كثيراً عند قبر أبيها حينذاك، من دون أن تستطيع التعبير عن حقيقة ألمها. وما لبثت صعوبات الحياة أن تفاقمت عليها ففقدت نقودها وتبدد حلمها بدخول الجامعة، وهكذا تمسكت بأول عمل وجدته. اختصرت هيذر مأساتها بكلمات مقتضبة وشعرت بتجاوب بابتيستا معها. تسامرتا مدة ساعة، وكل لحظة تمر تقربها أكثر من تلك المرأة الراقية والمرهفة الحس.

عندما أطل لورنزو برأسه من خلال الستائر وإمارات الإستفهام على وجهه، رحبت به المرأتان بشاشة فانضم إليهما ضاحكاً وسمعت صوت ريناتو قبل أن يطل عليهم. بدا عندما ودّعته، في مطار إنكلترا، شاحباً، وذراعه معلقة في رقبته ولكنه الآن يتمتع بكامل عافيته السابقة.

صدمها لقاؤه، فلقد نسيت ضخامته، وعضلاته البارزة، وشخصيته المتسلطة. وكان تأثيره مدمراً، في موطنه، محاطاً بالشمس الحارقة والألوان المتألقة.

تقدّم ريناتو أولاً من أمه، يحييها بمزيج من العطف والإحترام، مما استرعى انتباه هيذر. ثم التفت إليها وقال: «أهلاً بشقيقتي».

أحست برائحة عطره الرجولي إلى أن ابتعد عنها ليحيي لورنزو بقرص ذقنه ساخراً. ورد لورنزو التحية الباردة قبل أن يتعانقا ضاحكين ويربت كل منهما على ظهر الآخر بحنان.

التقت عينا بابتيستا بعيني هيذر، تدعوانها إلى مشاركتها زهوها بولديها، فأومأت هيذر، آملة أن يأتي دورها يوماً ما.

وأخيراً، جلس ريناتو قبالتها، مبتسماً بتحفظ. كان يرتدي ملابس عادية

مؤلفة من بنطلون وقميص قصير الكمين، وبدت ذراعاه السمراوان متناقضتين مع بياض القميص. كان شعره الأسود مشعثاً لا سيّما وأنه راح يمرر أصابعه فيه. وأحست هيذر بأن الدنيا قد تقتصر على وجوده متكئاً إلى ظهر الكرسي بذراعيه الممدودتين.

كانت الشمس تميل إلى الغروب. سأل أحدهم عن برناردو وأنجي، فذهب لورنزو للبحث عنهما وسط قهقهات الحاضرين. وتذكرت هيذر ثرثرة أنجي في الطائرة، وأملت ألاّ تنجرف مع ميولها الرومنسية المتهورة.

عندما حان وقت العشاء، لجأت هيذر إلى غرفتها وتبعتها أنجي بعد لحظة لامعة العينين.

سألتها هيذر: «هل تمتعت بوقتك؟».

فقالت أنجي ببراءة مصطنعة: «أجل. شكراً».

عندما انتهتا من ارتداء ملابسهما، دق الباب ودخلت بابتيستا بجلال حاملة صندوقاً أسود. علّقت باسمة حين رأت ثوب الزفاف الذي وضعته هيذر على كرسي بجانب النافذة.

ـ إنه رائع. وهذا يتلاءم معه.

ثم فتحت الصندوق وأخرجت تاجاً مرصعاً باللؤلؤ شارحة:

ـ تقول الأسطورة إن الملكة ماري انطوانيت وضعته مرة، ثم انتهى إلى اسرة مارتيلي. ومنذ أجيال وهو لا ينفكّ يتنقل من عروس إلى أخرى حتى وصل إليك.

ـ ولكن.. هذا لطف منك.. ولكنه كثير عليّ. ماذا إذا تزوّج ريناتو؟ أليس من العادة أن...؟

قاطعتها بابتستا بلهجة آمرة: «لا أهمية للأمر ما دام غبياً محجماً عن الزواج. وليس عليه أن يلوم سوى نفسه. هيا، جربيه».

كان التاج رائعاً على شعر هيذر الأشقر الكثيف لكن قبول بابتيستا لها أثّر فيها أكثر. شكرتها هيذر وشعرت بالارتياح حين أعلنت أنها ستحتفظ بالتاج في خزنتها إلى يوم العرس. عندما لمست هيذر الترف في المنزل، سرّت لأنها

أنفقت مالها على شراء بعض الملابس.

ارتدت للعشاء ثوباً حريرياً مكشوف الكتفين أصفر اللون يظهر مفاتن جسمها بعيداً عن الإثارة الرخيصة. أما انجي فبدت رائعة في ثوبها الأزرق والأخضر لكن عيني لورنزو لم ترياً غيرها، كما أن ريناتو بدا مصعوقاً.

أمسكت بابتيستا بيدها وقادتها إلى الأمام معلنة أمام عدد من فعاليات المنطقة:

ـ أقدم لكم ضيفة الشرف.

ثم أجلستها على رأس المائدة بينها وبين لورنزو. انتابها إحساس بعدم الارتياح لدى رؤيتها كل من الحضور يكلمها بخنوع وكأنها ملكة.

إنه إحساس جميل لكنه يوتر الأعصاب لأنها تولّت مهمة تقديم الطعام للضيوف. كانت الوجبة وليمة بحد ذاتها وأوضحت بابتيستا أنهم يتمرنون في المطبخ من أجل العرس القادم. حوت المائدة أفخر أنواع الأطعمة الصقلية واضطرت إلى تذوّق الأطباق كلها لأنها تعلم أن رفضها سيحرج أولئك الذين تعبوا في طهي تلك الأصناف إكراماً لها.. فقالت بابتيستا بلطف وقد بدا عليها التفهم:

ـ من الأفضل ألاّ تأكلي المزيد من الطعام.

فقالت هيذر: «ولكن يجب أن أتذوق هذه الحلوى، فهي تبدو لذيذة».

فكوفئت بنظرات الإستحسان من الجميع ولكن أحبّ مكافأة إلى قلبها صدرت عن باتيستا التي علقت هامسة: «أحسنت صنيعاً، يا ابنتي».

لم تستطع أن تمنع نفسها من الإعجاب بالأخوة الثلاثة، وهم في كامل أناقتهم بملابس العشاء. بدوا رائعين، لا شك أن لورنزو هو الأطول والأكثر وسامة وبرناردو الأسمر الرزين ذا الابتسامة التي تخطف الأنفاس... أما ريناتو فصاحب الشخصية القوية الصارمة التي لا تعرف الهزيمة، وقد وجدت صعوبة في معرفة نواياه وأسباب ترحيبه الواضح بها.

مرتان أثناء العشاء، استدعي ريناتو إلى الهاتف وقالت لها أنجي لاحقاً: «يقول برناردو إن ريناتو هو الأكثر انشغالاً في الأسرة بينما لورنزو هو الأكثر

ظرفاً».

فقالت هيذر: «وماذا عن برناردو؟».

غمزت أنجي بعينها قائلة: «سأخبرك في ما بعد».

عندما همّ الضيوف بالمغادرة همس لورنزو في أذنها: «تعالي معي».

وجرّها خارجاً. صعدا السلم، ثم سارا في الممر إلى أن وصل بها إلى باب خشبي ولجاه إلى غرفة واسعة حديثة الطراز. ثم قال:

ـ ما رأيك، هل تعجبك؟

ـ إنها رائعة! لكن لمَ تسألني؟

وإذا بصوت من خلفهما يقول: «أرجو المعذرة».

نظر كلاهما معاً، وإذا بريناتو يقف على العتبة، ضاحكاً.

ـ آسف لإزعاجكما. هل أعجبتك شقتكما؟

ـ شقتنا؟

فقال لورنزو موضحاً: «هذه الغرف مستقلة تقريباً، وستكون ملائمة لنا تماماً».

فسألته بذعر: «أتعني... أن نعيش هنا بدلاً من أن يكون لنا بيت مستقل؟».

ـ لكنه سيكون أشبه ببيت مستقل لنا.

ـ لا، لن يكون كذلك. سنكون في جوار غرفة أخيك.

فقال ريناتو موافقاً: «وهذا سيكون فظيعاً».

فشرعت تقول: «ليست مسألة شخصية...».

فقال مواجهاً عينيها: «بل أظنها كذلك».

فقالت: «إذا عشنا هنا، فسيكون لورنزو رهن إشارتك. اعتقد أنّ هذا ما تفضّله...».

ـ لكن هل سيكون لديك وقت للعثور على بيت قبل أسبوع من الزفاف؟ كان في إمكان لورنزو طبعاً أن يختار بيتاً قبل الآن، لكنني ظننت أنك تفضلين القيام بذلك بنفسك. لماذا تفترضين بي الأسوأ؟».

ردّت بصراحة: «بالغريزة».

فضحك بجرأة قائلاً: «أنت تظلمينني».

ـ لا. هذا غير صحيح.

لكنها لم تستطع إلا مبادلته الابتسام. يمكنه أن يكون شيطاناً جذاباً إلى حد مخيف.

قال لها ريناتو: «يمكنك البحث عن منزل في ما بعد. وبانتظار ذلك، اشغلا هذه الغرف فهي مريحة تماماً».

بدا كلامه منطقياً، غير أن غريزتها أشارت إلى أن ريناتو يحب أن يبقي الناس حيث يريد. وأخيراً قالت: «الفترة قصيرة فقط. حالما نعود من شهر العسل».

علّق بذكاء: «ليس بهذه السرعة فلورنزو مسافر في رحلة عمل إلى نيويورك...».

ـ حقاً...

باشرت هجومها لكنه قاطعها: «أفترض أنك ترغبين في مرافقته».

عندئذٍ ألقت بسلاحها، فهي متلهفة للذهاب إلى نيويورك وأضاف ريناتو: «يبقى موضوع شهر عسلكما».

فقالت باحتجاج: «لا تخبرني أنك رتبت ذلك أيضاً».

ـ فكرت في أنكما قد تودّان استعارة مركبي مدة أسبوعين. أما الرحلة البحرية فسيتكفّل طاقم الملاحة بالمسألة، وجل ما عليك فعله هو الاستمتاع فقط.

فتدخل لورنزو قائلاً بلهفة: «إنه مركب رائع يا عزيزتي. إنه سفينة صغيرة مجهّزة و...».

ـ وأنتما قد سويتما المسألة. لنفرض أنني لا أحب الإبحار... ماذا لو كنت أعاني من دوار البحر؟

فسألها ريناتو: «وهل يصيبك دوار؟».

ـ لا أدري. فلم أبحر قط.

ـ علينا إذن أن نكتشف ذلك في أسرع وقت ممكن. غداً يسافر لورنزو إلى «ستوكهولم»، ليعوّض ما فاته من تأخير. سآخذك في نزهة بحرية كي تعلميني بقرارك.

* * *

أملت هيذر أن ترافقهما أنجي لكن هذه الأخيرة خططت للبقاء مع برناردو.

ـ سيريني بيته في القرية.

فاستنكرت هيذر: «لكنك بالكاد تعرفينه».

ضحكت أنجي بسرور: «أعرف هذا».

ـ كوني حذرة!

بدت أنجي مفعمة بالثقة كأيّ شابة قادرة على الإيقاع بأيّ رجل تريد. وبعد لحظة، سمعتها هيذر تغني في الحمام...

لا شك أن «سانتا ماريا» سفينة رائعة، يفوق طولها مئة قدم قد بدت ضخامتها في ميناء «موندیلو» حيث ترسو. أوقف ريناتو سيارته وساعدها على النزول وهو يسألها بصوت مليء بالفخر والزهو: «ما رأيك فيها؟».

ـ إنها جميلة.

قفز إلى سطح السفينة بخفة، ثم مد يديه ليساعدها بالوصول. وفي اللحظة التالية، كانت تتأرجح في الهواء لتنزل بجانبه وسألها: «هل أنت مسرورة؟».

فأومأت لاهثة وقد فوجئت بهذه النقلة السريعة: «نعم».

عرّفها إلى طاقم الملاحين الذين اصطفوا لتحيتها: «ألفونسو القبطان، جياني، كارلو».

وأشار إلى رجل صغير الحجيم مضيفاً: «وهذا هو «فريدو» الطاهي الذي لا يعصى عليه طهو أي طبق».

كانت الشمس مشعة ودافئة، والهواء يداعب سطح المياه برقة. وسرعان ما غادروا المرفأ إلى عرض البحر، وبعد عدة دقائق، اعتادت هيذر على حركة

المياه واستمتعت بتهادي المركب. سألها ريناتو محدّقاً في وجهها: «حسناً؟ هل تريدين العودة؟ أم إلقاء نفسك عن ظهر المركب؟ أم تفضلين رميّ أنا عن ظهر السفينة؟».

ردّت ضاحكة: «يبدو الاقتراح الأخير حسناً».

شاركها الضحك كاشفاً عن أسنانه البيضاء القوية في وجهه الأسمر. لقد تغيّر ريناتو بشكل ملحوظ إثر عودته الأخيرة من لندن حيث لم يعد ذلك الرجل المحب للجدال، كما أن ثيابه أيضاً باتت مختلفة. أناقة الليلة الماضية استبدلت بقميص أبيض مفتوح وسروال أزرق. وبدا حيوياً مفعماً بالرجولة.

قال وهو يبتسم لها: «دعيني أريك مملكتك سيدتي».

كان داخل المركب أشبه بقصر صغير. في المطبخ، انهمك «فريدو»، في إعداد وجبة الغداء. وعلى طول الممر الضيق رأت غرفة النوم الرئيسية التي يتوسطها سرير ضخم مزدوج، يحلم به أي حبيبين ليلة عرسهما.

تركها ريناتو لترتاح وعاد الى سطح المركب.

عندما عادت إلى سطح المركب وجدت ريناتو جالساً تحت المظلة إلى مائدة محملة بأطعمة خفيفة وكؤوس مستطيلة. وقال: «تتوسط صقلية البحر الأبيض المتوسط وبالتالي يمكن لهذا المركب أن يقلك إلى أي مكان، بسهولة تامة. يمكنك أن تذهبي إلى تونس أو إلى اليونان أو حتى إلى الساحل الإيطالي».

- وإلى أين سنذهب اليوم؟

- سنجول حول الجزيرة ثم نعود، كما سنجد خليجاً هادئاً نسبح فيه. ألم تشعري بدوار البحر بعد؟

- مطلقاً حتى أنني أشعر بروعة المكان.

تنشقت هواء البحر المالح المنعش، فقال ضاحكاً: «سنجعل منك بحارة».

واستلم ريناتو الدفة فيما جلست قربه والهواء يعبث بشعرها، ورذاذ البحر الناعم يغطي وجهها. فجأة أحست بالسعادة تتملكها.

- لم لا تأخذين حمام شمس؟ ولكن ادهني جسمك أولاً بالمستحضر الواقي من الشمس، فبشرتك شديدة البياض وعليك أن تحميها.

فقالت متنهدة: «الشمس لا تؤثر بي أبداً».

فقال بعدم اكتراث: «الشمس الإنكليزية! وماذا تعرفين عن الحرارة سيدتي؟ إنها حارقة في بلادنا ويتضاعف تأثيرها مع المياه. يمكنك وضع قبعة شمس تجدينها في المقصورة».

اختارت أحد المستحضرات الفاخرة من حمامها الصغير، ووضعت قبعة على رأسها، ثم عادت إلى السطح لتتمدد في الشمس. وأخذت تدهن جسمها بالمستحضر الواقي من الشمس.

أراحت رأسها على يديها وبدأت تسترخي. تطلعت بعينين ناعستين إلى الشمس المنحدرة على سطح المركب وبدا المنظر كأنه يخدر إحساسها، فاستسلمت للنعاس. وإذا بها تصحو فجأة على زعيق طيور النورس وصوت تلاطم الأمواج بالسفينة فأجبرت نفسها على العودة إلى أرض الواقع فيما راح قلبها يخفق بقوة غطت على تلك الأصوات. التفتت بحدة فرأت ريناتو ينظر إليها وفي عينيه شيء لم تستطع تفسيره وتمتم بصوت بدا بعيداً: «إنها طيور النورس. هل أخافتك؟».

فأجابت بغموض: «نعم، قليلاً».

شعرت بالارتياح عندما أبعد نظره عنها. ونظرت حولها فدهشت لاستعادة المكان شكله الطبيعي. كان قلبها ينبض بعنف، لكن خفقاته ما لبثت أن خفت تدريجياً. استلقت مجدداً وغرقت بعد لحظة في سبات عميق. أيقظتها لمسة ريناتو الخفيفة على كتفها، وقال: «لقد رسونا قرب خليج صغير».

ساعدها ريناتو على النزول ثم ابتعدا متجهين إلى شاطىء ذهبي صغير مهجور، فاقترح: «فلنسبح قبل أن نأكل».

ثم ركضا معاً على الرمال الذهبية.

اغرتها برودة المياه فغطست فيها، ثم سبحا معاً نحو المياه العميقة. لم

تسبح من قبل بعيداً عن الشاطىء فهي ليست سباحة ماهرة، لكنها شعرت بالثقة تغمرها بسبب وجود ريناتو معها.

سبحا مدة نصف ساعة، ثم عادا جنباً إلى جنب.

وعندما لمست الشاطىء، قال لها: «دعينا نسبح بعد».

ـ لا، سأخرج محتويات السلة، إذهب أنت إذا ما أردت.

ركض ثم قفز إلى الماء، فيما أخذت تجفف شعرها تحت أشعة الشمس الحارقة. عندما نظرت مجدداً إلى البحر، لم ترَ ريناتو. كانت المياه ساكنة ولا أثر له فيها.

وقفت ببطء وأحست بسحابة قاتمة تحجب الشمس، بدا لها وكأن الدنيا أظلمت، وكأن الطبيعة فارقت الحياة.

وإذا برأس ريناتو يطل من الماء فغمرها الارتياح. لوّح لها بيده فردت عليه وقد أدركت أنها كانت تحبس أنفاسها.

عندما وصل إلى الشاطىء، نهرته: «لقد أفزعتني».

فأجاب ضاحكاً: «آسف، أحب أن أسبح تحت الماء أطول مدة ممكنة».

جفف جسمه ثم جلس بجانبها. قربه منها أظهر بوضوح الندبة القبيحة في معصمه فارتجفت.

ـ لا تشغلي بالك بها فقد شفيت. أنظري.

ومد يده لتتحقق من الندبة عن كثب. لقد شفيت كما أكد لها لكنها لم تكن قد نسيت عمق الجرح ومدى خطورته آنذاك. بدت يده الكبيرة القوية غريبة إلى جانب يدها النحيلة الرقيقة... وقال متأملاً: «كنت أقول أنه لا يمكن لامرأة أن تترك أثراً علي. وإذا بك أنت...».

ـ هذا ليس مسلياً، في الواقع.

ـ لا بأس، فلأخبرك بجدية عما حدث لنا تلك الليلة. في لحظة كنت تطلبين مني أن اختفي من وجهك وإذا بك في اللحظة التالية تنقذين حياتي بالرغم من اصطدام السيارة بك. وعندما أوشكت على الإغماء تمالكت نفسك فقط لكي تبرئي السائق».

فقالت تزهو مازحة: «اعتقد أنه تحفّظي الانكليزي فنحن مشهورون بتماسكنا».

ـ وهل من شيء قادر على إخراجك عن اتزانك؟

فقالت باسمة: «لا اعتقد... ربما عليك التفكير».

أعلن فجأة: «يا الله. كنت على صواب في إحضارك إلى هنا».

ـ أنت؟ لورنزو هو من أحضرني إلى هنا.

ـ طبعاً طبعاً، أظن أنّ علينا أن نأكل الآن.

كان الطعام شهياً، فأوضح ريناتو أن الطاهي «فريدو» بذل مجهوداً جباراً إكراماً لها. وأثناء ارتشافهما العصير المنعش، استرعت انتباهها ندبة أخرى في وجهه فخيّل إليها أنها نتيجة عراك مع حيوان متوحش وتساءلت عن شكل هذا الحيوان. راقب نظرتها بارتباك، فخجلت لتصرفها وقالت: «آسفة».

هزّ كتفيه، قائلاً: «هذا لا يهم فالله لم يخلقني وسيماً كما أنني ارتكبت حماقة على الدراجة النارية فنلت ما أستحق».

ـ كل هذا بسبب الدراجة؟؟

ـ عندما كنت يافعاً وطائشاً اشتريت دراجة نارية سريعة ورحت أقودها بسرعة جنونية. حذرتني الشرطة عدة مرات، ولكنها كانت تقيم وزناً لعائلتي. وحصل ذات يوم أن قطعت منعطفاً بسرعة متهورة وكدت أُقتل. لحسن الحظ لم يتضرر أحد. أما أنا فحصلت على هذه الندبة في وجهي لتذكرني بالابتعاد عن الحماقات.

ـ لا أستطيع أن أتصورك طائشاً، إذ تبدو منضبطاً وشديد السيطرة على نفسك.

ـ عندما مات والدي استلم عمي إدارة الشركة ولم يكن ماهراً في ذلك. كان لا بد لأحدهم أن يمسك بزمام الأمور في الشركة قبل فوات الأوان.

ـ وبهذا أصبحت الشركة حياتك؟

ـ وهي حياة أكثر فائدة من المقامرة بحياتي وأنا أراها اليوم سارة

للغاية.

لاحظت تشديده على عبارة اليوم، وتساءلت كيف تمكّن مراهق طائش من ارتداء بذلة وارتياد مكتب. قال بعفوية: «أخبرتني أمي أنك تمنّعت عن قبول هديتها أمس».

ـ تقصد تاج اللؤلؤ؟ إنه إرث عائلي وبما أنك البكر يفترض أن يعود إلى زوجتك.

ـ هذا ما أستبعده. لعلني أظن أنّ حياة العزوبية تناسبني بحيث لا أرغب في التخلي عنها.

ـ نعم. إلينا، جوليا، وبقية المجموعة. أنا لا أصدق ذلك، فهو يدل على انتقارك إلى النضج وهو أمر منافٍ للواقع.

عبس بشكل مثير للضحك وردّ: «أنا لم أكن هكذا على الدوام. عرفت سيدة، اسمها مجدلينا كونتي.. القصة عاطفية مثيرة للشفقة، كنت يافعاً حينها وأعتقد بأشياء لم أعد أؤمن بها الآن. تعلّمت درساً لن أنساه طالما حييت».

ـ هل هي سبب سوء ظنك بالنساء؟

ـ ربما، إذ كانت رائعة الجمال، رقيقة، محبة، لكنها أيضاً جشعة ومحتالة إلى أبعد حدود. صوّبت سهامها نحوي من أجل المال، وغرقت أنا كالأبله في حبها، فطلبت منها الزواج. كنت سأطلب يدها في جميع الأحوال. وهكذا عشت حلماً جميلاً.

ثم سكت وهو ينظر بشرود إلى البحر وتسمرت عيناه على الأفق.. أو لعله غرق في ذكريات الماضي.

وسألته هيذر برقة: «وبعد ذلك؟».

ـ تعرّفت إلى رجل آخر أغنى مني بكثير ويعمل في مجال السينما الذي كانت تهواه كثيراً.

لاذت هيذر بالصمت إذ لم يكن ثمة ما يقال من دون أن يبدو تهكماً. الألم بدا ملحوظاً رغم مرور الزمن. وفجأة، انتابها ألم فظيع فتساءلت عن

المرأة التي يمكنها أن تسأم من رجل بهذه المواصفات. أختتم ريناتو كلامه بالقول: «والآن، المرأة الوحيدة التي أثق بها هي أمي أما لورنزو فمحظوظ بالعثور عليك».

ـ إذن، أنت تعتبرني موضع ثقة؟ إذاً لا بدّ أن هذه الصفة تنطبق على نساء أخريات.

ـ ما زال لورنزو قادراً على منح ثقته، أما أنا فلا. خذي إذن هدية أمي ولن تنافسك امرأة أخرى عليه أبداً.

ثم سألها بهدوء: «أتظنين أنك ستكونين سعيدة هنا، يا هيذر؟».

ـ كنت واثقة منذ البداية. لست مندفعة بطبيعتي، لكن لورنزو جعلني أشعر بأنني مرغوبة.

فنظر إليها بإمعان: «ألم يجعلك أحد تشعرين بهذا قبل؟».

ـ ارتبطت بشخص آخر منذ فترة قصيرة. بقينا مخطوبين سنة وتركني قبل الزفاف بأسبوع. أظنني تألمت قليلاً لإحساسي بأني مرفوضة.

ثم خطرت لها فكرة مخيفة، فأضافت:

ـ ولكن لا تظن أن ارتباطي بلورنزو رد فعل طبيعي لما حدث. ما أقدمت عليه هو لأجل لورنزو نفسه... لقلبه الدافىء العامر بالحب.

أدهشتها تقطيبة ريناتو وكأن هناك ما يزعجه في الأعماق ثم ما لبث أن قال: «هيذر، إذا ما وقعت في مشكلة، عديني بأن تأتي إلي».

ـ ولمَ آتي إليك بينما يمكنني اللجوء إليه؟

ـ إنه رجل ممتاز. ولكن إذا شعرت أنك بحاجة إلى أخ، فتذكري أنني موجود.

كانت على وشك الضحك لكن شيئاً ما في تصرفات ريناتو ردعها. كان في عينيه قوة غريبة صامتة... فقال يحثها: «عديني، يا أختي».

ونطق بكلمة (اختي) باللهجة الصقلية فسألته: «ما معنى هذه الكلمة؟».

ـ معناها (أختي) بلهجتنا، وأنت أصبحت أختي الآن.

ـ وما معنى كلمة (أخي)؟

فرد عليها ثم قال: «عدي أخاك، أعطيه كلمتك».

حيرها إلحاحه كما احتارت لعبوسه من قبل.

ـ لا بأس. أعدك بذلك يا أخي.

وقالت الكلمة الأخيرة بلغته، فردّ:

ـ أعطني يدك لتصافح.

عندئذٍ، شعرت بقوة تتسرب منه إليها، وأضاف قائلاً: «ولكي أريك أنني أخوك حقاً. أيمكنني أن أقودك بنفسي إلى عريسك في الكنيسة؟».

فقالت متأثرة: «شكراً. هذه شهامة منك».

بدا ريناتو رزيناً. وفجأة، جمد الإثنان إلى حد أنها باتت تسمع خفقات قلبها. وتملكها شعور غريب بأن العالم كله يجاري نبضها.

ونظرت هيذر إليه متسائلة عما حدث. لِمَ تراها أحست بأن العالم تغيّر، وأن الشمس أظلمت، والحرارة اشتعلت؟

قال ريناتو بصوت غريب: «يجب أن نعود الآن».

فأجابت من دون أن تعي ما تقول: «نعم».

عندما وضّبت سلة الطعام كان شعورها قد تلاشى وأخذت توبخ نفسها لتصوراتها تلك. لقد فتحت أسرة مارتيلي كلها ذراعيها مرحبة بها فإذا بشعور غريب يشوّش أفكارها. وأسرع بهما الزورق مسابقاً الريح، فطارت أفكارها الحمقاء من رأسها.

***

٤ ـ وردات الحب

في طريق العودة، ألقت هيذر نظرة على مؤخرة المركب حيث الزورق السريع فسألها: «هل تودين أن تجربيه؟».

أجابت متلهفة: «بكل سرور».

أنزل ريناتو الزورق إلى الماء ببطء، ثم قفز إلى المقعد الأمامي بينما جلست هي خلفه. وفوجئت هيذر لسرعة الزورق فتمسكت جيداً وإذا بريناتو يصرخ بها: «هل أنت بخير؟».

بالكاد سمعت كلماته من خلال الضجيج لكنها أجابت: «في أحسن حال».

مخر الزورق بهما عباب المياه، وأثار الزبد الأبيض فيها شعوراً بالإنتعاش لم تعرفه في حياتها. أخيراً، أبطأ الزورق وتوقّف فصرخت: «ووو...».

التفت إليها ضاحكاً: «إذن، استمتعت بذلك؟».

فأجابت بسعادة: «آه نعم! آه، نعم سررت جداً. أين نحن الآن؟».

ونظرت إلى المركب الذي بدا صغيراً جداً، فقالت له: «إنه يبعد أميالاً».

ـ هذه الزوارق فائقة السرعة ولو تابعنا الإبحار دقائق أخرى لغاب المركب عن أعيننا.

وشعر بدافع جنوني للقول: «أتودين المتابعة؟».

www.elromancia.com

فصاحت رافعة رأسها إلى السماء: «إلى الأمام».

ـ ماذا حدث لك يا هيذر؟

وكان يضحك فلقد أنبأته لهجتها بقوة جامحة تتملّكها.

ـ لا شيء. كل شيء... إنه العالم أجمع!

ـ أظن أنّ علينا العودة.

ـ لا بأس.

أحس بتغيّر لهجتها فأدار المحرك مندفعاً نحو عرض البحر فغابت السفينة سانتا ماريا عن الأنظار. شعرت هيذر ببهجة عارمة وكأنها تحررت من قيود كانت تكبل حياتها. إحساسها بالحرية أفقدها المنطق فرفعت ذراعيها وقد شعرت بالأمان التام. أحست بأنها منيعة ولا يمكن لأيّ مكروه أن يصيبها.

وفجأة، انحرفا بحدة. حاولت التشبث من جديد لكن الأوان فات، ولم تجد ما تتمسك به، فاندفعت في الجو وهوت في الماء. شعرت، لفرط سرعتها، أنها اصطدمت بجدار صلب. وفي لحظة، غشى السواد عينيها.

شعرت أنها على وشك الاغماء وراحت تغوص وتغوص في أعماق البحر الداكنة وقد تملكها الرعب. حاولت الصعود إلى سطح الماء، لكن عينيها الزائغتين حالتا دون ذلك. شاهدت ريناتو يبتعد عنها، غير عابىء بسقوطها في الماء، فصرخت مستنجدة مع علمها بأنه لن يسمعها.

ثم عادت تغوص في المياه العميقة.

جاهدت لتطفو مرة أخرى، لكنها علمت أنها ستغرق قبل أن يدركها. وعندما يعود... يكون الأوان قد فات. شعرت بوعيها يغيب وبوزنها يشدّها إلى الأسفل ومن ثم أخذت الظلمة تبتلعها.

وفجأة انتشلتها يد من العدم. لم تستطع أن تتبيّن شيئاً لكنها شعرت بنفسها ترفع إلى أعلى... حيث الضوء والهواء. فشهقت بارتياح.

قال ريناتو بصوت أبح لشدة ذعره: «التفتت إلى الخلف فلم أجدك. ماذا حدث...؟».

ـ لا أدري... لا أستطيع...

ـ لا بأس حمداً لله على نجاتك.

كان الزورق بعيداً عنهما بعد أن تركه ريناتو محاولاً إنقاذها، فطفق يسبح نحوه بذراعه الطليقة، ثم صعد إلى السطح بصعوبة. أجلسها أمامه، وهو يقول مزمجراً:

ـ اجلسي حيث يمكنني رؤيتك. لقد سقطت في الماء فلم أعرف أين أبحث عنك.

كان رعبه يماثل رعبها. قالت وهي ترتجف بعنف: «ظننت أنك لن تعثر عليّ أبداً».

ـ لا بأس. تمسكي بقوة.

عادا إلى السفينة بسرعة معتدلة، وهيذر لا تستطيع التفكير وكانها مخدرة. وأخيراً شعرت بأنها تنقل إلى سطح السفينة... وفجأة ساد الظلام.

* * *

عندما استيقظت، وجدت قربها أنجي التي بادرتها مبتسمة: «مرحباً. هل أدهشتك رؤيتي؟ ريناتو استدعى برناردو بواسطة هاتفه الخلوي طالباً منه الحضور إلى المرفأ. جئت بنفسي إلى السفينة منذ دقائق لأتأكد من أنك بخير».

استجمعت هيذر قواها لتقول ممازحة:

ـ أرجو ألا يكون قد قاطعكما في وقت غير مناسب.

كانت ابتسامة أنجي مزيجاً من المكر والغموض وهي تقول: «ستتاح لنا فرص أخرى. هيا لنذهب إلى الشاطىء».

فقالت هيذر بسرعة: «لنعد إلى البيت».

* * *

نزولاً عند أوامر أنجي، أمضت هيذر اليوم التالي في الفراش، واستيقظت مرتاحة تماماً. وكلما دخلت بابتيستا أو أنجي الغرفة كانت تشعر بأن هناك ما لا يريدان اطلاعها عليه. ولم تستطع أن تسأل ريناتو، لأنه لم يأت لرؤيتها على

الإطلاق.

وأخيراً، أوضحت أنجي لها الأمر: «لقد اتصل ريناتو بلورنزو في ستوكهولم طالباً منه الحضور، لكنه اكتشف أن لورنزو لم ينزل في الفندق قط ولا أحد يعرف مكانه. وهكذا تملكنا القلق. غير أنه تبين لنا أنه في طريق العودة».

ـ سيأتي إلى البيت عاجلاً أم أجلاً.

ـ أظنه لم يستطع الابتعاد عنك طويلاً وسيصل قبل حلول المساء.

دفعها ذلك إلى النهوض. وعند حلول العصر كانت في أجمل حلّة للقاء لورنزو. حالما توقفت السيارة، صعد السلم بخفة إلاّ أنه بدا متوتراً لكنها فسّرت سلوكه باهتمامه بصحتها. وعندها قال:

ـ أين ريناتو؟ علي التحدث إليه الآن.

ظنّت أنه سيوبخه لأنه عرضها للخطر، فقالت: «أنا بخير، يا حبيبي».

فقال: «ستتحدث فيما بعد».

ودخل البيت ليختفي ما تبقى من النهار. أرغمتها بابتيستا وانجي على النوم باكراً، وعندما استيقظت في اليوم التالي، كانت الشمس مشرقة ووجدت لورنزو على مائدة الإفطار. بدا شاحباً لكنه تمالك نفسه، وابتسم لها موضحاً أنه لم يتشاجر مع أخيه.

لم يربا بعضهما البعض إلا نادراً، بالرغم من أن ريناتو لم يرسله في رحلة أخرى خارج البلاد، لكنه عيّنه في المكتب الرئيسي في «بالبرمو» وراحا يغادران معاً كل صباح إلى العمل ويعودان في وقت متأخر.

لم تفتقده هيلر إذ كانت سعيدة بتمتين العلاقة مع بابتيستا. أرتها العجوز أرجاء المنزل، وباتت تفهم ملياً الأسرة التي ستتزوج منها أو تتزوجها على حدّ قول ريناتو.

إذا تزوجت من أسرة مارتيلي، فستتزوجيننا كلنا.

بدا هذا الكلام صحيحاً عندما أخذت تتفرج على «صور» العائلة. شاهدت صور عرس بابتيستا وفنسنت مارتيلي. كانت رائعة الجمال لا تكاد

تبلغ كتف عريسها المتجهم الذي يكبرها بسنوات ويقف مستقيماً بعدم ارتياح. كان يشبه ريناتو الذي رأت صوراً له وهو صغير فلاحظت أنه ينظر دوماً إلى الكاميرا مباشرة، وعيناه مليئتان بالتحدي، وفمه حازم. لطالما كان يعلم ماذا يريد، وكيف سيحصل عليه.

بعدئذٍ رأت صور لورنزو بشعره المجعدّ ووجهه الملائكي، فجعلها تبتسم. وأخيراً أتت صور برناردو بوجهه الرزين، والذي بدا منزوياً عن الآخرين وكأنه يريد التواجد في مكان آخر. قالت بابتيستا: «سرعان ما ستضاف إليها صور أخرى، عندما تصبحين رسمياً في العائلة».

كانت بابتيستا تعاني من ضعف في القلب فتمضي معظم وقتها في الراحة. لكنها بدت ذلك اليوم على مأدبة الإفطار في قمة عافيتها وتفاؤلها، فدعت هيلر إلى القيام برحلة طويلة، من دون تحديد وجهتهما. وعندما انطلقت بهما السيارة تنهدت.

ـ أود لو أدعو أنجي لمرافقتنا أيضاً.

ـ لكن لديها وبرناردو، خطط أخرى لقضاء اليوم.

وابتسمت ابتسامة ذات مغزى فردت هيلر: «لم أر أنجي بهذا الشكل من قبل، إنها في العادة... حسناً...».

ـ تحب وتهجر.

أكملت بابتيستا كلامها، مزهوة بمعرفتها للتعابير الإنكليزية، فقالت هيلر: «نعم، لكنها تبدو، هذه المرة، مأخوذة حقاً ببرناردو. لكنني أتساءل عن حقيقة شعوره».

ـ إنه رجل صعب جداً. ولكنه بات أسعد من ذي قبل منذ حضور أنجي. ربما ستتعب معه أكثر مما تتصور، لكننا سنكون جميعاً مسرورين إذا نجحت معه.

كان داخل الجزيرة أقل عمراناً من الساحل، إذ رأت الماعز ترعى قرب أطلال معبد يوناني عتيق. كما قطع طريقهما لفترة قصيرة قطيع من الأغنام يقوده راع ابتسامته عريضة، حيا بابتيستا فردت بالمثل وقالت:

ـ نحن الآن في أرضيّ. لديّ مزرعة صغيرة وقرية وبعض الكروم وبساتين زيتون وفيلا صغيرة.

وصلنا أخيراً إلى القرية التي تدعى إلونا وتقوم على سفح تلة. كانت قرية من طراز القرون الوسطى مرصوفة بالحجارة الملساء وتضم بيوتاً صغيرة باستثناء الكنيسة، والفيلا الحجرية.

انتصف النهار فجلستا في الداخل عند النافذة الكبيرة المطلة على شرفة واسعة، والتي تزيّنها ستائر مخرمة يتلاعب بها النسيم.

أعلنت بابتيستا مزهوة: «طلبت شاياً انكليزياً على شرفك».

فقالت هيذر وهي ترتشف الشاي: «إنه لذيذ».

لفظتها بالإيطالية وبلهجة صقلية، فابتسمت بابتيستا: «أصبحت صقلية!».

ـ حسناً، لقد تعلمت قليلاً من الإيطالية لضرورات العمل ولم استصعب اللهجة الصقلية ولكنني سأحسّنها مع الوقت.

ـ المهم أنك تسعين لأن تكوني منا. وأدرك تماماً أنك ستفعلين.

فقالت هيذر على الفور: «لم يمر على وجودي في صقلية غير أيام... ولكنني احسست لدى وصولي بأنني أنتمي إلى هذا المكان... لن أدري كيف أعبّر عن ذلك.. وكأنما كل شيء يوحي لي بأن هذا مكاني الحقيقي والطبيعي. لم يتملكني هذا الشعور قط».

ـ إذن فقد جئت إلى المكان المناسب.

وأشارت بابتيستا بيدها إلى المناظر المغمورة بأشعة الشمس وأضافت:

ـ أنظري، الأرض نفسها ترحب بك.

ـ ما أروع هذا المكان. هل أمضيت هنا طفولتك؟

ـ لا. لكننا كنا نزور هذا المكان أحياناً في الصيف، عندما تصبح حرارة المدينة خانقة. إنها أملاكي التي حرصت على إبقائها في حالة جيدة لكي أرتّب بها أمر زواجي.

فسألتها هيذر غير واثقة مما سمعت: «ترتيب زواجك؟ أكان زواج

مصلحة؟».

فضحكت بابتيستا: «طبعاً. زواج المصلحة شائع جداً، حتى في أيامنا هذه وخصوصاً بوجود أملاك... تكون هذه الزيجات ناجحة في الغالب بالرغم مما قد تظنينه».

ـ ولكن، ماذا عن الحب؟

بدت في عيني بابتيستا نظرة شاردة، وقالت بنعومة: «وقعت في الحب مرة، كان اسمه «فيديريكو» وكنت اسميه «فيدي». كان بالغ الوسامة، طويل القامة، قوي ذا عينين سوداوين معبرتين».

وابتسمت متأملة ثم أضافت: «لم يكن يفترض بفتاة ثرية أن تنظر إلى الأمور من هذا المنظار غير أنه كان أجمل شاب في صقلية، والفتيات مجنونات بحبه، لكنه أحبني أنا».

ـ وماذا حدث؟

ـ لم يحالفنا الحظ مطلقاً. كان بستانياً، وفي تلك الأيام لم تكن الفتيات الثريات يتزوجن بستانياً. لقد اعتاد أن يعمل هنا ويزرع أزهاراً بديعة، لأجلي فقط. قال لي مرة إنه كلما رأى وردة، يفكر بي.

ـ وماذا حدث؟

ـ فرق بيننا والداي. أرسلاه بعيداً ولم أره قط. حاولت أن أعرف ما آلت إليه أحواله. أردت فقط أن أطمئن إلى أحواله لأشعر بالسكينة. لكن، وكأنما الأرض انشقت وابتلعته فلم أستطع أن أعرف شيئاً.

فصعقت هيذر: «زال من الوجود؟ أتعنين أنه...؟».

فقالت المرأة بسرعة: «لا أدري. لقد اختفى. ويا ليتني عرفت مصيره ولكنني أعتقد الآن أنني لن أعرف أبداً».

ـ أما زلت تفكرين فيه... بعد كل تلك السنين؟

وبانت الكآبة في صوت بابتيستا، وهي تجيب:

ـ كان حبي الوحيد والصادق. ما من امرأة تنسى حبها الوحيد! بكيت أسابيع وكنت واثقة من أن حياتي انتهت. رتب أبواي عدة زيجات لي فرفضتها

جميعاً. وبعد عدة سنوات، بدآ يقلقان لأني بلغت الخامسة والعشرين، وهو سن متأخر بالنسبة لفتاة من جيلي. وأخيراً اقترحا عليّ الزواج من فنسنت. كان رجلاً طيباً، رغم أنه بليد، وأردت أولاداً، لذا تزوجته، وقد سررت بذلك.

ـ هل أحببته؟

ـ لم نحب بعضنا بالفعل لكننا بتنا صديقين حميمين.

وابتسمت هيذر بمكر.

ـ لعلك تتساءلين عما إذا عرفت بأمر زوجي ووالدة برناردو. طبعاً كنت أعلم، ولكنني لم أعتبر ذلك نهاية العالم. لقد أخذت كفايتي من الحب، ومن السعادة التي عرفتها ولو لمدة قصيرة إلا أنها ستبقى معي طوال حياتي. سررت لأن فنسنت استطاع هو أيضاً أن يجد السعادة.

ـ ولكن... أتراك تقولين إن الحب... غير مهم في الزواج؟

ـ أنا أقول إن هناك أنواع عدة من الحب. فنسنت كان أعز صديق لديّ. وكان زواجنا متيناً، وعندما ماتت طفلتنا الصغيرة، بكينا في أحضان بعضنا البعض.

ـ هل كان لديك طفلة؟

ـ إنها البكر ماتت وعمرها ستة أشهر، وكان اسمها «دورتيا».

وأمسكت بابتيستا بيدها، مضيفة:

ـ لو كتبت لها الحياة لتمنيت أن تشبهك، برقتك وقوة شخصيتك.

وضعت هيذر يدها الأخرى على يد بابتيستا ونظرت إليها بعينين مغرورقتين بالدموع، فأكملت بابتيستا:

ـ لم نعرف بعضنا منذ وقت طويل. ولكن الأيام المعدودة كافية أحياناً للمحبة كما حصل معك ومع لورنزو. لقد شعرت منذ البداية أنك الابنة التي لم ألد. أملاكي في «بيلا روزاريو» كانت ستعود لدورتيا وهي ستكون اليوم بعهدتك.

ـ أتعنين أنك... ستمنحينها للورنزو...

ـ لا، سأمنحك إياها.

ـ ولكن... لا يمكنني أبداً...

قاطعتها بابتيستا ببساطة: «ستحطمين قلبي برفضك».

فقالت هيذر على الفور: «لن أسبب لك الألم حتى ولو أعطيت كنوز العالم بأسره».

فكرت هيذر في أن هذه الأملاك ستعود عاجلاً أم آجلاً إلى الأسرة بمجرد زفافها، الذي بات وشيكاً.

لكن بابتيستا حضّرت لها مفاجأة أخرى، إذ اشارت بعصاها إلى خادمة، قالت لها بضع كلمات صقلية. وبعد لحظة دخل رجلان وقوران، مجللان بالسواد ويحملان أوراقاً.

فقالت بابتيستا:

ـ هذا محامي ومساعده. أعتقد أن الأوراق جاهزة للتوقيع، وسيشهدان على عقد البيع.

فسألتها هيذر مذعورة: «أتعنين الآن؟».

فقالت بابتيستا بهدوء وهي تمسك القلم: «اليوم هو التوقيت المناسب».

فقالت هيذر: «سنيورا...».

ـ بعد أيام سيحق لك أن تدعيني (ماما) ولكن لم لا نبدأ منذ الآن؟ ستسعديني كثيراً لو قبلت.

ـ وأنا أيضاً... يا... ماما.

ـ جيد والآن، كوني ابنة مطيعة ولا تجادلي.

وبعد لحظات، وجدت هيذر نفسها صاحبة أملاك.

بعدما خرج المحاميان، قالت بابتيستا: «أشعر الآن ببعض التعب. سأذهب لأرتاح قليلا، بينما تلقين نظرة على أملاكك».

عندما أخذت هيذر تجول في غرف الفيلا الأنيقة أدركت أنها وجدت بيتها الحقيقي الذي تحلم به.

كان حجمه مناسباً تماماً لعاشقين، وقريباً بما يكفي من «باليرمو» ليصبح

الانتقال إليه عملياً.

وأخذت الخطط تتبلور في رأسها إذ يمكنها ولورنزو أن يعملا معاً، ثم يعودا إلى هذا المكان السحري إلى عالمهما الخاص.

وعندما يبدآن بتكوين أسرة، ستختار بالضبط الغرفة المناسبة للأطفال، وهي في القسم الخلفي من المنزل وتشرف على الحديقة الرائعة. وقفت قبالة النافذة لحظة، تتخيل ما ستكون عليه هذه الغرفة ثم أسرعت تهبط السلم لاستكشاف الأراضي المحيطة بالمنزل.

كان الجو عابقاً بأريج الزهور والأشجار الفارعة تظلل الممرات، والطيور تغرّد فوق الأفنان. راحت تجول في أرجاء هذا المكان الساحر، فيما خرير الجدول يرافقها على الدوام.

وفجأة، اتسع الممر ليصبح فجأة منفصلاً تقريباً عن بقية الحديقة. كانت الورود تملأ المكان غنية بألوانها الوردية والبيضاء والصفراء، وفي الوسط انتصبت شجيرة ورود متفتحة. قالت بابتيستا: «أدركت أنك ستعثرين على المكان».

استدارت هيذر فرأت بابتيستا واقفة هناك، متكئة على عصاها.

ـ رأيتك من نافذتي، فأردت أن أريك مكاني الخاص.

ـ هل هو...؟

ـ نعم، «فيدي» غرسها لأجلي. إنها طريقته في البوح بما كان محرماً علينا.

ثم أشارت إلى مقعد خشبي فجلستا عليه معاً.

ـ لقد رعيت هذا المكان، على مر السنين، بالحب فنما. وقد حرصت على الاعتناء بالنباتات لكي تنجو من عوامل الطبيعة في مواسم الشتاء، فكنت أنقلها إلى مشتل زجاجي، أو حتى إلى المنزل. لم تبرح النباتات مكانها الاصلي التي غرسها فيه، وقد أخذت منها شتولاً إلى المنزل الكبير، وغرستها هناك في حديقتي.

وأشارت إلى شجيرة ورد متألقة بجمالها في هذه البقعة، وتابعت: «قال

لي إنه لن يحب امرأة كما أحبني لقد غرسنا هذه الشجرة معاً ولم أدعها تموت».

وأضافت برقة فائقة.

ـ إذا ما عاد اليوم، فيمكنني أن أريه تلك الشجيرة وأقول: «أنظر لقد أحببتها من أجلك».

قالت هيذر بلطف: «وأنا سأحبها من أجلك».

ـ كنت أعلم أنك ستفعلين. وعندما يدفنونني، وتتكوم على قبري الأكاليل من أناس لا يهمونني، احرصي على غرس وردة على قبري من هذه الشجيرة.

ـ طبعاً سأفعل. ولكن ألا تريدين أن يفعل هذا لورنزو أو ريناتو؟

فهزّت رأسها بالنفي: «عندما يحين الوقت، سيبكي لورنزو وينسى كل شيء ما عدا حزنه وعليك حينذاك أن تكوني قوية لمساندته أما ريناتو فثمة أشياء يعجز عن فهمها».

وتبادلتا ابتسامة متفهمة فوعدتها هيذر: «طبعاً سأفعل هذا لأجلك أعدك بذلك».

ـ يمكنني أن أطمئن الآن. لطالما أقلقني عدم وجود شخص أعتمد عليه في القيام بذلك.

ـ أما زلت تحبينه رغم مرور وقت طويل؟

ـ ليس كما تظنين، فقد ماتت العواطف المحمومة منذ زمن طويل. لم يبق لي شخص ليشاركني تأمل المغيب.. ويمسك بيدي، ويبتسم في وجهي بعينين تقولان: «أعطني يدك لنذهب معاً من دون خوف إلى حيث تغيب الشمس». أحياناً، أحضر عند الشفق لأتذكره لكنني أجلس وحدي دوماً. إنني أتقدم في السن، يا ابنتي، وقلبي يتألم لما حرمت منه.

أمسكت بذراع هيذر، ثم عادتا إلى البيت معاً ببطء. كانت ردة فعل لورنزو، تلك الليلة، غريبة، فبعد الدهشة والسرور، علّق قائلاً: «لا أدري كيف سيتلقى ريناتو هذا الخبر، لطالما كان يتمنى أن يملك فيلا «بيلا روزاريا»

يوماً ما».

وتحضّرت هيذر لتبادل الإتهامات مع ريناتو حول مسألة الڤيلا وإذا به يصعد إلى غرفته من دون أن يمنحها أكثر من إيماءة بسيطة.

***

٥ ـ عروس السراب

بدأ الأقارب يتوافدون إلى «باليرمو» للإقامة في منزل الأسرة الكبير أو في أفخم الفنادق، وذهلت هيذر لعدد الأخوال والأعمام وابناءهم وسائر الفروع البعيدة لأسرة مارتيلي. اصيبت بالدوار لكثرة إلقائها التحيّات، وقد سرت كثيراً للقاء أنريكو و «جيوزيب» ابنيّ عم بعيدين لبابتيستا. منذ عهد بعيد، أغرم الاثنان بها، وعندما تزوجت فنسنت مارتيلي، لزمهما وقت لتضميد قلبيهما المحطمين. وبعد أربعين سنة لا يزالان عازبين يتسابقان لنيل شرف مرافقتها، وقد سمحت لهما بمرافقتها معاً إلى العرس...

وقبل العرس بيومين تألّق المنزل الكبير باللون الأحمر وأعد للحفلة الراقصة. وفي غرفتهما في الطابق الأعلى، راحت هيذر وانجي تستعدان للسهرة.

بعد اليوم الذي أمضته هيذر على ظهر السفينة، صبغت الشمس بشرتها بلون ذهبي ناسبها تماماً. عندما خرجت من الدوش شعرت بالأسف لأن هذا اللون لا يغطي كل أنحاء جسمها.

نادتها أنجي: «أسرعي».

فأجابت بارتياح: «أنا قادمة».

أطلق لورنزو شهقة وهو يراها في ثوب حريري مطرز بلون الخزامى وقال: «كل رجل هنا سيحسدني».

وبالرغم من تودّده، بدا مشغول البال، لكنها عزت ذلك إلى التوتر الذي يسبق الزفاف. عندما افتتحا الرقص معاً تصاعد التصفيق، وقاما بأول جولة

www.liromancia.com

وحدهما قبل أن ينضم اليهما الآخرون.

وتملّك هيذر شعور بأن كل ما يحدث يتبع ايقاعاً. وهكذا، رأت الوجوه ترقبهما، ولاحظت بابتيستا، بين فارسيها، تبتسم راضية وهي ترى حلمها يتحقق. كما لمحت أنجي وبرناردو، وقد بدوا كعاشقين سعيدين. بدا كل شيء رائعاً.

لاحظت ريناتو واقفاً بجوار أجمل امرأة رأتها في حياتها، وهي سمراء ذات عينين كبيرتين سوداوين. كل شيء فيها كان مثيراً، ولعل السبب هو نظرتها المغرية التي توجهها إلى ريناتو. قال لورنزو وهو يشد قبضته عليها: «حذار. كدت تتعثرين».

ـ آسفة.

ـ كنت بعيدة عني أميالاً. بم تفكرين؟

فأجابته بابتسامة متألقة: «حتماً بعرسنا. فأنا أفكر فيه طوال الوقت».

ـ وأنا كذلك... بعد غد... نرتبط إلى الأبد.

ـ نعم... إلى الأبد.

ـ الحمد لله، لقد بدأ المدعوون بالرقص، ولن أشعر بعيونهم علي.

ـ من هي تلك المرأة مع ريناتو؟

ـ إنها إلينا ألانت وهي أرملة. ريناتو يفضلهن متزوجات، مطلقات أو أرامل، ذوات خبرة. أترين المرأة هناك؟ إنها مينيتا وخلفها مباشرة، الكونتيسة «جوليا بينوتي» يجمعهن قاسم مشترك واحد هو ريناتو...

فقالت بمرح: «إنه رجل شجاع».

ـ شجاع إلى حد دعوتهن كلهن إلى هنا في وقت واحد. لست أدري ما الذي تملكه.

تساءلت هيذر هي أيضاً عندما واجهت ريناتو أخيراً. رأته أكثر توتراً وحدّة من ذي قبل، وكأنه يتأهب للقتال بابتسامة بدت وكأنها تتطلب منه جهداً. قدّمها إلى «إلينا» فانتبهت هيذر إلى شيء جعلها تبتسم، وتمتمت تقول: «دعني أهنئك لإختيارك هذا العطر يا سنيورا، فهو رائع».

ـ لقد اشتراه لي عزيزي ريناتو حديثاً، واسمه (غموض الليل). لطالما طلبت منه عدم شراء هدايا غالية الثمن، لكنه يقول إنني غالية عنده.

فتمتمت هيذر تقول: «الرجل يبتاع هدية قيمة للصديقة الغالية على قلبه، أنا واثقة تماماً من أنه بذل مجهوداً كبيراً لاختيار العطر المناسب».

فعلّق ريناتو باختصار: «هل لي بحديث قصير مع العروس على انفراد؟».

تركته هيذر يقودها إلى ممر مجاور وصاح بها مزمجراً: «يكفي خداعاً».

ردّت ببراءة مصطنعة: «كنت أحاول أن أتصرف بأدب، فالعطر جميل حقاً. وما دمت تتحلى ببرودة هائلة تجعلك تتباهى بحريمك، فأنت حتماً لا تخجل بهن».

لمعت في عينيه نظرة تحذير: «هناك أشياء لا تقال».

ـ من المؤكد أنه ليس شعوراً بالذنب، أليس كذلك؟

فقال بحدة: «لا، بل من باب اللياقة والاحتشام».

لم تستطع غض الطرف فردّت: «اللياقة والاحتشام؟؟ أنت؟؟ يا ليتني كنت شاهدة حين أعطيت إلينا ذلك العطر، مصحوباً بكلمات الغزل التي شغلت أفكارك في لندن... تلك الأفكار التي لم تمنعك من الانشغال أيضاً بجوليا وميتيا، من دون إغفال حبيبة أخيك...».

ضغط على أسنانه، وهمس في أذنها: «كفى. إياك أن تجرؤي على مثل هذا القول».

وفجأة، لم تعد تستطيع التنفس، لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها: «أنا... أنا كنت أتسلى بحديث قصير. لم أشكرك بعد على تلك الرحلة الممتعة. كنت على صواب في فكرة قضاءنا شهر العسل على مركبك».

بدا واضحاً أنها تهذي بأي كلام، ولا تفهم ما تقوله. فقال بضيق: «هناك شيء واحد لم أكن مصيباً فيه. عليكما أن تبحثا عن مكان تعيشان فيه».

ـ لكنك قلت...

ـ لقد غيرت رأيي. لا يمكنكما العيش هنا.

لم يكن هناك حاجة للسؤال عن السبب، ولم تخطىء في رؤية توتره إذ بدا مستعداً للانقضاض عليها. كان الشرر يقدح من عينيه وكأنه يتحرق شوقاً لضربها... وانتبهت إلى أنه يتنفس بصعوبة. هناك شيء غريب يجمعهما.

لقد تنبأ بذلك منذ لقائهما الأول عندما جاءها إلى منصة البيع في المتجر، فاحتدم النقاش بينهما ليحلّ مكان الخيار الثاني...

ظهرت الحقيقة جلية امامها فهي تعشق ريناتو، وإلا لماذا تشعر بلسعة كلما فكرت فيه؟ ولماذا لا تبرح صورته خيالها وهي تعترف الآن بذلك؟

كم كان سهلاً عليها لو بقيت عدائية تجاهه غير أنّ تقاربهما على الشاطىء دمر ذلك الحاجز بينهما فاكتشفت ميلها إليه وتعاطفها مع أحزانه مما اعتبرته أكثر خطورة من انجذابها إليه.

فاجأها اكتشافها فانفجرت بوجهه: «ما كان ينبغي نتحدث على انفراد».

أجاب بهدوء: «أعلم هذا».

ـ أعني عليّ البقاء مع الضيوف لذا لا يفترض بي أن أنشغل بالحديث مع أخي.

اختيارها لعبارة أخي لم يكن مناسباً لأنهما استرجعا ذكرى تلك النزهة التي أثارت مشاعرها الدفينة وشعرت فجأة بأنها لا تريد أن تتذكر.

عندها، قال: «أنت على حق. يجب أن تعودي إلى واجباتك لأعود أنا إلى (حريمي) فهن لا يسببن لي أية مشاكل».

ـ ما من مشكلة تستعصي عليك ريناتو أنا واثقة من ذلك.

ـ لطالما حسبت ذلك أيضاً. تصبحين على خير... إذاً، نلتقي في الكنيسة.

استدارت لمقابلة الأقارب الكثر حاصرة انتباهها فيهم. وهكذا أمضت سهرة حافلة شغلتها عن ريناتو، أو مدعواته.

استلقت هيذر في السرير وغرقت في دنيا الأحلام. شعرت بذراعين قويتين تصعدان بها السلم وتمددانها على السرير، وإذا بوجه ريناتو يخترق

الضباب لغزاً يصعب حله.

فصرخت وتلاشى كل شيء. وفجأة وجدت هيذر نفسها في السرير ترتجف بفعل أحاسيسها المكبوتة وتشهق: «لا... لا!».

فسألتها أنجي وقد نهضت من سريرها بدورها: «ماذا حدث لك؟».

ـ لا شيء إنه مجرد حلم...

لقد حلمت بما كبحته في لا وعيها من أحداث يوم غرقها في البحر. لم تكن تجرؤ على تذكر نظرة ريناتو ولكن جزءاً منها لن ينسى أبداً، وقالت: «سأخرج في نزهة».

ـ هل أرافقك؟

ـ لا، شكراً أنا... أنا بحاجة إلى الإنفراد بنفسي.

ارتدت عباءة فوق قميص النوم، ثم خرجت إلى الشرفة الأرضية حيث وجدت المنزل مظلماً وهادئاً. هب نسيم الليل العليل فطرد بعذوبته تلك الحرارة التي تتملكها. ودقّت الثانية صباحاً... إنه يوم عرسها وقد استيقظت من نومها لأنها تحلم برجل آخر.

كانت تعلم في قرارة نفسها أن ريناتو رجل خطر، لكنها أملت أن تنسى ذلك مع لورنزو، سر انجذابها إليه والعالم بأسره.

نظرت إلى الأسفل فارتاحت لمرأى لورنزو يتنزّه في الحديقة فهمست منادية: «لورنزو. أنا قادمة».

تسلّلت إلى الممر ومنه إلى السلالم. كان ينتظرها في الردهة، فبادرها قائلاً: «ماذا حدث، يا عزيزتي؟».

ـ لا شيء. أردت فقط أن أقول لك كم أحبك.

ـ لا حاجة بك للتكدر.

ـ لست متكدرة، فكل شيء رائع. ولكنني أحسست بالحاجة للتعبير عن حبي.

ـ وأنا أحبك. إذاً كل شيء على ما يرام.

في تلك الأمسية، جمعهما التوتر ولكنها أملت أن يختلف الأمر عندما

يبحران في شهر العسل.

تنبّهت لحركة مفاجئة في الظلام، فسألته: «ما هذا؟»

ـ إنه ريناتو فهذا مكتبه وهو في الداخل يعمل.

ـ أيمكن أن يسمعنا؟

ـ ربما. وما الأهمية في ذلك؟.

وأضاف:

ـ دعيني أرافقك إلى الأعلى فبعد ساعات قليلة ستصبح معاً إلى الأبد.

* * *

كان ثوب العرس مصنوعاً من الحرير الخالص على طراز العصور الوسطى، وطياته العريضة تمنحها امتلاءً وتألقاً.

أما ذيل الفستان المزيّن بالدانتيل فيكاد يلامس الأرض، وقد ثبّت باكليل اللؤلؤي، فبدا مظهره يحبس الأنفاس.

منذ وصولها أحست بأنها أصبحت شخصاً جديداً، وتعاظم هذا الشعور في هذا النهار بالذات حيث تضافر الشمس والبحر في تفتيح شعرها حتى أصبح ذهبياً، وظهرت السمرة الطفيفة التي حصلت عليها متألقة في الثوب الأبيض. وللمرة الأولى في حياتها أحست أنها لم تعد مجرد فتاة جميلة بل فاتنة.

عزت الأمر إلى طقس صقلية الحار، الذي أيقظ أحاسيسها التي كانت خامدة في انكلترا. كانت الحرارة خانقة ولكن هيذر لم تعبأ بذلك بل بدت بكامل حيويتها.

ارتدت أنجي للمناسبة، ثوباً بسيطاً من الحرير أبرز لونه البني تألق بشرتها وعمق عينيها اللتين امتلأتا بالبهجة والحماسة. وابتسمت لها هيذر مداعبة، ثم قالت:

ـ أظن أن تقاليد الزفاف في صقلية مشابهة لانكلترا، وكذلك فيما يتعلق بالإشبينة والأشبين.

وتصاعد طرق على الباب، وسمع صوت ريناتو:

ـ لقد ذهب الجميع إلى الكنيسة بمن فيهم لورنزو وبرناردو. أنا بانتظاركما في الأسفل.

قدّمت أنجي باقة زهور بيضاء إلى العروس، قائلة: «تبدين فاتنة. سيغمى على لورنزو حين يراك».

وابتسمت هيذر. لقد بددت الشمس هواجسها فهي تحب لورنزو وهو يحبها، وهذا هو المهم.

سارتا في الممر ببطء، ثم انعطفتا قليلاً. أطلت هيذر على قمة السلم الواسع فيما تجمع خدم المنزل لمشاهدتها وهي تنزل. كانوا يبتسمون لها بإعجاب، بينما التفت ريناتو إلى العروس، وبدا حابساً أنفاسه، ثم تقدّم منها وتصاعد تصفيق الخدم.

كانت سيارة الليموزين في انتظارهما فصعدت هيذر إلى المقعد الخلفي باحتراس بينما أخذت أنجي تسوي لها ثوبها ونقابها من حولها، ثم جلست بجانبها. انضم ريناتو إليهما وانطلقت بهم السيارة نحو باليرمو. حاولت أن تستوعب ما يحدث لها وأنه حقيقة لا لبس فيها. كان ريناتو صامتاً، فظنت أنه هو أيضاً مشغول البال. عندما التفتت إليه فوجئت بنظراته مسمّرة عليها، ورأت في عينيه النظرة المذهولة نفسها التي شاهدتها من قبل. عندما بلغوا ضواحي باليرمو، شقت السيارة طريقها في الشوارع حتى لاحت لهم الكنيسة.

وقفت السيارة، فترجلت العروس تحت أشعة الشمس بينما عادت أنجي تسوي لها الثوب والنقاب.

احتشدت جموع المدعوين لتفحّصها عن كثب، بعضهم صفق لها فيما راح آخرون يتهامسون بإعجاب ويثنون على طلتها.

ونظر إليها ريناتو قائلاً: «هل أنت مستعدة؟».

ـ طبعاً.

ـ ألا تساورك شكوك؟

فصرخت فيه حانقة: «ولمَ هذا السؤال؟».

ـ لا أدري... هيا بنا.

ودخلا معاً الكنيسة.

بدا المكان مظلماً في الداخل، لكن عينيها تسمرتا على البناء الضخم الذي احتشد فيه الناس محدقين فيها وهي تتقدم إلى المذبح. بدا أنّ رئيس الأساقفة وأفراد الجوقة المنشدة قرب المذبح يترقبون وصولها لإتمام المراسم.

حبست أنفاسها، فيما اشتدت قبضتها من دون وعي منها على ذراع ريناتو، ثم استعدّت للخطوة التالية. قال ريناتو بلطف: «انتظري».

أسرع برناردو نحو البهو لملاقاتهما وإمارات القلق بادية عليه، وبادرهما بصوت خافت عاجل: «ليس الآن. فلورنزو ليس هنا».

قاطعه ريناتو: «ماذا تعني؟ وصلتما معاً، أليس كذلك؟».

- نعم، ولكنه ما لبث أن تسلل خارجاً. قال إنه يريد أن يتحدث إلى شخص يعرفه على أن يعود بعد دقيقة. عندما بحثت عنه، لم أجد له أثراً، ثم...

تردد برناردو في المضي فسأله ريناتو بخشونة: «ثم ماذا؟».

- رأته امرأة في الخارج يستقل سيارة أجرة، تبينت ذلك من وصفها له... ولكن، يمكن لهذا الوصف أن ينطبق على أي كان...

فقال ريناتو: «طبعاً، إنها زوبعة في فنجان كما يقال. سيعود لورنزو في أي لحظة».

لكن ملامح وجهه ونبرة صوته عكستا الحقيقة، كما لاحظت هيذر نظرات برناردو التي تفادت عينيها. بدا الأمر حلماً مزعجاً حيث شعرت بنفسها تتخبط في الهواء وتنظر منفصلة عن ذاتها إلى امرأة غريبة عنها في ثوب زفاف.

- ماذا حدث؟ أين لورنزو؟

لم يتبهوا إلى بابتيستا وهي تقترب منهم لتستفهم عن ولدها. كانت تقف، بجسمها النحيل ونبرتها المتسلطة، ممسكة بذراع أنريكو، وهي تنقل نظراتها بينهم. وعادت تسأل: «أين لورنزو؟».

أصابهم تساؤلها بالذعر فلم يستطيعوا الإجابة. وإذا بغلام في السادسة عشرة من عمره يشق طريقه إليهم ثم يتوقف متوتراً لدى رؤيته الجموع الغفيرة. بلع ريقه، ثم دس ورقة في باقة أزهار العروس، وهرب مطلقاً العنان لساقيه. عاودها الكابوس مجدداً فمدت يدها خائفة لتفتح الورقة بحذر، مقدّمة الباقة الرائعة إلى الوصيفة. وجدت مساحة بيضاء محشوة ببعض الكلمات المكتوبة بقلم الرصاص. من الواضح أنّ مرسلها خطّها على عجل وبتوتر ملحوظ، فتغاضت عن ذلك وانتقلت هيذر إلى فحواها: «إلى الحبيبة الغالية هيذر» أرجو أن تصفحي عني، لم أكن اريد أن ننتهي بهذا الشكل المخزي لكن إلحاح ريناتو عليّ لاتمام الزواج جعلني أحس أنني مسير ولست مخيّراً. أنا أحبك جداً... كما أظن. وربما لو جرت الأمور بيننا بشكل طبيعي، لتزوجنا في الوقت المناسب. لقد جمعتنا مشاعر صادقة أليس كذلك؟ كنت أتمنى أن يبقى الأمر على ما هو عليه. لكن ريناتو انقض علينا في لندن وارتأى تزويجنا، وتعرفين البقية. عندما أصيب في ذلك الحادث وانقذت حياته حسبت أنني قادر على إتمام رغبة أخي ولكنني وجدت نفسي مكبلاً بقيود قبل أن يتسنى لي التمتع بشبابي. لقد جئت من استكهولم مبكراً لكي أتحدث إليك، وأشرح لك قراري بإرجاء زواجنا لكن ريناتو جعلني أتعقل. صدقيني، عندما خرجت هذا الصباح إلى الكنيسة، كنت مصمماً على إتمام الزواج. ولكنني أدركت فجأة أنني لا أستطيع المضي في خداعك. حاولي أن تسامحيني. ما زلت أعتقد أنك رائعة».

المخلص لورنزو

غرقت هيذر في صمتها فبدا لها أن العالم كله يسخر منها، وسقطت يدها الممسكة بالورق في الفراغ.

لن يأتي لورنزو، فحبه لها لم يكن قوياً، ولم يشأ أن يتزوجها على الإطلاق. ريناتو هو من أوحى إليه بالفكرة، فهو يحرك الناس كالدمى لمصلحته الخاصة، محرفاً الحقيقة هنا وهناك. لطالما استغربت حماسه

لانضمامها إلى الأسرة.

وسمعت خلفها ريناتو يشتم بغضب باللغة الصقلية وأدركت أنه قرأ الرسالة من فوق كتفها. التفتت إليه كالمنومة مغناطيسياً، وقرأت الصدمة في عينيه كما لاحظت شحوب وجهه الذي بدا مشابهاً لما كان عليه في سيارة الإسعاف في تلك الليلة التي أوشك فيها على الموت.

تلاقت أعينهما للمرة الأولى. بدا فاقداً اتزانه ويبادلها الشعور نفسه بالخيبة المريرة. لقد تبلّد إحساسها فلم تعد تعي شيئاً.

تقدّم عدد من الأقارب الفضوليين لمعرفة المسألة وأخذوا يتجمّعون من حولها، فعلا الهمس وتناقلت الألسن ما جرى.

همست أنجي: «ماذا هناك؟».

إزاء صمت العروس، انتزعت الورقة من أصابع هيذر المرتعشة. اقترب برناردو من انجي لقراءة ما فيها، ثم رفع رأسه ينظر إلى ريناتو بغضب وذهول: «سأبحث عنه وأعيده إلى هنا...».

احتجّت هيذر بعنف في محاولة للتغلب على أفكارها المضطربة ونظرت إليهما: «لا! أتظنان أنني سأرضى بذلك؟».

فردّ برناردو بتفهم: «هيذر... إنه لا يعني هذا حقاً».

ـ ولكنني أعني ما أقول، أتظنني متلهفة إلى الزواج برجل تحت التهديد؟ كيف تجرؤ؟.

فأومأ يقول: «سامحيني. كان هذا كلاماً أحمق».

كانت تستعيد قوتها رغم أنها باتت على شفير الانهيار. وأجلّت البكاء وناضلت للحفاظ على كرامتها المجروحة إلى أن تختلي بنفسها. ودّت لو تستطيع الهرب الآن، لتختبىء من هذا الاذلال العلني. لكنها لن تهرب ولن تختبىء بل ستواجههم مرفوعة الرأس. قالت بهدوء:

ـ حسناً، من الأفضل أن نعود إلى بيوتنا.

ونظرت في عيني ريناتو، ثم أضافت:

ـ أنت أحضرتني ويمكنك أن تعيدني.

رمقها بنظرة إعجاب وتقدير ولكنها لشدة غضبها لم تر شيئاً. وتبخر غضبها أمام نظرة بابتيستا التي وقفت صامتة، وعلامات المرض والإنهاك بادية عليها، وقالت: «آسفة أعرف أن الأمر فظيع بالنسبة إليك أيضاً».

منحتها بابتيستا ابتسامة مضيئة وقالت: «حاولي أن تسامحي ابني فنيته طيبة، لكنه يسلك دوماً أسهل سبيل. لقد دللته كثيراً وهذه هي النتيجة».

فقالت هيذر بعطف: «ليست غلطتك».

ونظرت إلى ريناتو مباشرة من دون كلام.

فقالت بابتيستا بضعف: «أنت رقيقة للغاية، يا عزيزتي، في غاية الرقة».

وترنحت مغمضة العينين، فصرخ ريناتو بحدة وهو يتلقفها في الوقت المناسب «ماما».

قالت أنجي: «مدّدها على الأرض».

تولّت مهمتها كطبيبة فركعت بجانبها وتحسست قلبها، ثم قطبت حاجبيها. فسألها ريناتو متوتراً وهو يركع في الجانب الآخر: «هل هي نوبة قلبية؟».

ـ لست واثقة. قد لا تكون خطرة جداً. لكنها بحاجة إلى مستشفى.

رفع ريناتو أمه بين ذراعيه وهو يناديها بلهفة: «ماما، يا إلهي».

واتجه بها نحو الباب مضيفاً:

ـ إن المستشفى قريب، وسنذهب إليه الآن.

فقال أنريكو: «ستتولى أمر الضيوف، سنأخذهم إلى البيت ونطعمهم ليرحلوا بعدها».

فقال برناردو بحماسة وهو يلحق بأخيه: «شكراً».

سألت أنجي هيذر: «وماذ نفعل نحن؟».

فأجابت هيذر بحزم: «سنلحق بهم فأنا أيضاً أحبها».

في الخارج استقلتا إحدى سيارات العرس ثم أرشدتا السائق إلى العنوان.

وصلتا إلى المستشفى، فوجدتا ريناتو وبرناردو في الممر يتمشيان.

ـ هل من خبر؟

طرحت هيذر سؤالها من دون أن تنظر إلى ريناتو. لم تشأ أن تعترف بوجوده، فقد كانت تعسة جداً لذا اعتبرت أن التركيز على بابتيستا سيمنعها من الصراخ. وأجاب برناردو:

ـ لم نعلم شيئاً بعد، لكنني واثق من أنها ستكون بخير. سبق أن تعرضت لنوبات في السابق، وكانت تتعافى دوماً.

فقال ريناتو بصوت منهك: «غير أن كل نوبة تقربها أكثر من الموت. قلبها قد يتوقف في أية لحظة، ونحن نعلم ذلك».

فقالت انجي بحزم: «أظنك تبالغ في التشاؤم. فحالتها لم تبدُ لي نوبة بل مجرد إغماء، ولا تنسى أنني طبيبة».

نظر برناردو إليها شاكراً، ولم تفت هيذر نظرة التفاهم التي تبادلاها. كم هما متلائمان! كانت تظن أنها ولورنزو، كذلك.

وصدرت عنها شهقة وامتلأت عيناها دموعاً. ولاحظت من خلال دموعها ثوبها الرائع فتذكرت أنه في هذه اللحظة كان يفترض بها أن تجثو أمام الكاهن بجانب لورنزو ليعقدا الزواج الذي سيجمعهما إلى الأبد. وبدلاً من النهاية السعيدة، رحل العريس وحده وبقي امامها الرجل الذي خطط واحتال لتزويجهما.

لم تكره هيذر إنساناً في حياتها كما كرهت ريناتو في هذه اللحظة. رفعت بصرها فرأته يراقبها وأدركت أنه قرأ أفكارها. أرادت أن تكيل له الاتهامات المرّة، لكن منظر وجهه المحطم منعها.

ومسحت دموعها بغضب نظراً لمرض أمه، لن تشتمه ولكنها لا تريده أن يراها باكية أو ضعيفة. وهمست أنجي وهي تمد لها يدها: «حبيبتي».

فقالت هيذر بحزم وهي تتمالك نفسها: «أنا بخير. أريد منك خدمة يا برناردو».

فهب فوراً: «هل لك أن تتصل بالبيت وتطلب من خادمة بابتيستا إحضار

ملابس عادية لأرتديها».

ـ ردّت أنجي بسرعة: «ولي أنا أيضاً».

فأومأ برناردو ثم ابتعد عنهما وأخرج جهازه الخلوي... سارت هيذر إلى النافذة ونظرت منها، متجنبة ريناتو بشكل واضح.

عاد برناردو ليقول إن الخادمة في طريقها إلى المستشفى. وإذا بالطبيب يخرج إليهم قائلاً: «حالتها مستقرة. يمكنكم أن تروها للحظة واحدة».

دخل الرجلان، بينما جلست الفتاتان بصمت إلى أن وصلت الملابس. وخلال دقائق استبدلتا ثيابهما فلم يعد بإمكان أحد أن يخمّن أن عرساً ما كان وشيكاً.

برز ريناتو في الممر بوجهه الأسمر الشاحب وخاطب هيذر بصوت متوتر: «تريد أن تراك».

ـ كيف حالها؟

ـ متألمة، إنها تلوم نفسها على هذه الكارثة.

ـ هذا هراء. أنا أعرف من الملام.

ـ أخبريها ذلك إذن. أخبريها كل ما تريدين، ولكن لأجل الله امنعيها من تعذيب نفسها، أنت الوحيدة القادرة الآن على مساعدتها.

ولجت هيذر غرفة بابتيستا فنهض برناردو عن السرير وابتعد عنهما. دخل ريناتو أيضاً الغرفة ووقف ينظر إلى هيذر وهي تتقدم من السرير.

منذ وقت قصير فقط، كانت العجوز رائعة في ثوبها الأسود المرصع بالمجوهرات لكنها تبدو الآن واهنة، شاحبة بين الأغطية البيضاء. التفتت إلى هيذر بعينين قلقتين، وهمست: «سامحيني، سامحيني».

فقالت هيذر بسرعة: «لا شيء يستدعي منك طلب الغفران. لم يكن ذنبك».

ـ لقد عرّضك ابني للخزي.

فقالت هيذر بسرعة: «لا، أعمالي فقط تعرّضني للخزي. ليس هناك أي

خزي، فالحياة مستمرة شئنا ذلك أم أبينا».

وأمسكت بيد بابتيستا، قبل أن تضيف:

ـ وستستمر لأجلك أيضاً.

أخذت بابتيستا تتفحص وجهها: «قلبك كبير. ابني أحمق فعلاً».

مالت هيذر نحوها وابتسمت في محاولة لطمأنتها: «معظم الرجال حمقى ونحن نعلم هذا. أليس كذلك؟ لكن علينا ألاّ ندع حماقاتهم تنغص حياتنا».

استرخى وجه بابتيستا، وتقبلت الاشتراك في المؤامرة الأنثوية التي كانت هيذر تحكيها وهمست: «فليباركك الله ولكن لا ترحلي».

فوافقت هيذر، قائلة: «ليس الآن. لس قبل أن أتأكد من أنك تتماثلين للشفاء».

ـ سأعود إلى البيت قريباً. عديني بأن أجدك هناك. عديني.

وقالت الكلمة الأخيرة بلهفة، فنظرت هيذر إليها مذعورة. كل ما كانت تريده هو الهروب من صقلية، فشرعت تفتش عن حجة للتملص: «أرجوك... لا أستطيع...».

لكن ريناتو قاطعها بعنف: «بل عديها!».

أخذ الاضطراب يتملك بابتيستا، فقالت هيذر بسرعة: «أعدك. سأكون بانتظارك حين تعودين إلى البيت لكنني سأذهب الآن لتبقي وحيدة مع أسرتك».

فعادت بابتيستا تقول: «ستكونين هناك، أنت أعطيت كلمة شرف».

ـ وأنا امرأة تفي بوعودها فلا تقلقي.

ثم خرجت.

سألتها أنجي بسرعة وهي ترى شحوب وجهها: «ما الأمر؟».

ـ لا أستطيع أن أصدق ما فعلته.

وأخبرت انجي بما حدث.

ـ لم يكن لديك خيار.

ـ لا. ولكن... كيف سأعيش في البيت نفسه مع ريناتو من دون أن أخبره حقيقة شعوري نحوه؟

* * *

www.elromancia.com

٦ ـ محروم من الحب

بدا المنزل الكبير موحشاً بعد أن فرغ من المدعوين الذين تجولوا في أنحائه والتهموا وليمة الزفاف تغمرهم الإثارة بسبب ما شهدوه من تطورات. رحلوا جميعاً باستثناء شخص أو اثنين يسكنان في مكان بعيد بحيث تعذرت عودتهما في الليلة نفسها. في الصباح، سيرحلان أيضاً لتبقى مع أحزانها.

بقيت كعكة الزفاف كما هي، فلم يمسها أحد لاعتقادهم أن ذلك يجلب النحس. وهكذا بقيت متألقة ترمز إلى اتحاد لم يحدث قط.

وقفت هيذر في الردهة شبه المظلمة محدّقة بالكعكة، وبتمثال العروسين المغروس في أعلاها. شعرت هيذر أنّ فخاً يطبق عليها، فلم تعد قادرة على العودة إلى الوراء، ولم تستطع التقدم إلى الأمام بسبب الوعد الذي قطعته. وهكذا، سدّت أمامها جميع المنافذ.

شعرت بدوار خفيف، وتذكرت أنها لم تأكل شيئاً منذ أمس. لقد رفضت تناول الفطور هذا الصباح لشدة إثارتها ولاعتقادها أنها ستأكل فيما بعد، بعد العرس. كانت مصممة على الاحتفاظ بتمثال العروسين الموضوع على القالب. حسناً، ما زال هناك إذا ما أردته.

وإذا بها تنهار فجأة. كانت، طيلة النهار، تتلهى بمرض بابتيستا لتنسى الحقيقة، إنما الآن لم يعد لديها ما يشغلها. فلورنزو لا يحبها، وقد هجرها أمام كل المدعوين في الكنيسة وحلم الحب الذي صدّقته بات مهزلة مقززة سببت لها الغثيان.

نسيت في هذه اللحظة، تلك الشكوك التي ساورتها أمس. أما ما راح

يعذبها الآن فهو ذكريات لقائها وافتتانها بلورنزو، ذلك الشاب الذي أغنى حياتها برقته وإشراقته و... بحبه.

قد يتضح لها أن مشاعرها نحوه لم تتعد الافتتان، ولكنها بدت حقيقية حينذاك. وقد أصبحت الآن مؤلمة للغاية. غطت عينيها بيدها ومالت نحو المنضدة مترنحة من العذاب وهي تغالب الدموع.

ـ لن أبكي... لن أبكي.

أقله ليس الآن، ليس قبل أن تنزوي وحيدة، بعيداً عن هذا البيت، وعن هذه الجزيرة... بعيداً عن ريناتو مارتيلي.

وقع خطوات جعلتها تلتفت وإذا بها ترى ريناتو ينظر إليها. شعرت بالغضب لتطفله عليها، لكنها تمالكت نفسها وقالت بهدوء مصطنع: «كيف حال أمك؟».

ـ تركتها نائمة. قال الأطباء إن ما أصابها لم يكن سوى دوّار.

ـ أي أن حالتها ليست خطرة؟

ـ قلبها مريض، ولكنها ليست نوبة قلبية هذه المرّة.

ـ هذا حسن. يمكنني أن أرحل قريباً إذن؟

ـ إذا شئت أن تؤلميها. لقد رحبت بك كابنة لها...

فقالت هيذر بخشونة: «ولكنني لست ابنتها، ولن أكون أبداً...».

ـ أنت لم تفهمي قولي. أنا لا أتحدث عن الوضع القانوني. أقول إنها أحبتك منذ وصولك وفتحت ذراعيها لك. ألم تشعري بذلك؟

ـ نعم، شعرت، وعنى ذلك لي الكثير. إنما الآن...

ـ وهل ستديرين لها ظهرك الآن؟ أهكذا تكافئينها على معروفها؟

ـ قلت إنني سأبقى حتى تعود. ولا أستطيع أن أعدها أكثر.

أجفلت لصوتها هذا، إذ جاء قاسياً متماسكاً مخالفاً لشخصيتها الحقيقية أو ربما للمرأة الرزينة المنضبطة التي تعوّدت أن تكون.

تسللت إحدى الخادمات إلى المكان، وطرحت سؤالاً باللغة الصقلية.

فقال لهيذر: «إنها تريد أن تعلم ما عليها أن تفعله بكعكة الزفاف».

حدقت هيذر فيه مصعوقة. كانت تتضور جوعاً، وعلى وشك الانهيار، وعقلها المنهك مشرف على الهذيان، وإذا بهذا السؤال البارد يفقدها أعصابها ويقربها من الهستيريا. انفجرت قائلة بعنف: «وما أدراني؟ لم أخض تجربة كهذه من قبل. غريب أن تغفل كتب أصول التصرف موضوع الزيجات الفاشلة. أعطني أنت اقتراحاً فلطالما كانت لديك حلول مثالية، حتى ولو انهارت بعضها بعكس ما خططت لها».

تراجع من دون أن يفقد هدوءه، وقال: «سأخبرها بأن ترسلها إلى ملجأ الأيتام».

ـ فكرة حسنة، ولكن من دون الطابق الأعلى. اطلب منها أن تحضر لي ذلك القسم الآن.

فعل ريناتو ذلك، فوقفت الخادمة على كرسي ومدت يديها تنزل عن الكعكة ذلك الجزء الصغير المزين بالتمثالين الصغيرين. لكن يدها اهتزت فسقط العروسان وتبعثرت اشلاؤهما أرضاً. أشار إليها ريناتو مطمئناً، فأسرعت مبتعدة.

وعندما أخذت هيذر تتفحص الجزء الأعلى الصغير، سألها: «لماذا تريدينه؟».

ـ لكي آكله، طبعاً، فعلى العروس أن تأكل بعضاً من كعكة زفافها، أليس كذلك؟

وتناولت سكيناً حاداً وقطعت جزءاً منها ثم قالت: «تناول شيئاً معي».

ـ لا أظن...

ـ أسكب لي إذن بعض العصير، أنت لن تحرمني من كعكة الزفاف والعصير يوم عرسي، أليس كذلك؟

أحضر كأسين ملأهما ثم سألها: «متى أكلت آخر مرة؟».

ـ أمس. لم أستطع أن آكل شيئاً هذا الصباح.

ـ ستندمين على أكل الحلوى ومعدتك فارغة.

ناولته كأسه، قائلة: «اشرب معي، دعنا نشرب نخب اليوم الذي أخرجته».

ـ هيذر، أعلم أنك حتماً تكرهينني...

ـ أضف الاحتقار والاشمئزاز... خصوصاً الاحتقار.

جرعت كأسها دفعة واحدة ثم ملأته وتابعت تقول: «أريد أن أعرف مدى صحة ما ورد في رسالة لورنزو. هل الجزء المتعلق بعودته مبكراً صحيح؟ هل أخبرك أنه يريد أن يلغي الزفاف؟».

ـ اسمعي...

ـ أخبرني، تباً لك.

فقال مكرهاً: «نعم، قال لي ذلك».

ـ واحتفظت بذلك لنفسك؟

ـ لمَ أخبرك بشيء قد يؤذيك؟ لقد تحدثت إلى لورنزو... ويبدو أنه تقبل الاستمرار...

فقالت: «تعني أنك جعلته يتعقّل وحملته على الزواج بي سواء شاء ذلك أم أبى. كيف تجرأت على ذلك؟ وهل تظنني امرأة ضعيفة بليدة الذهن؟»

ـ لا ولكن بعدما أخبرتني عن... خطيبك السابق...

فصرخت مذعورة: «وهل أخبرته بذلك؟ آه، لقد فعلت ما بوسعك لإذلالي، أليس كذلك؟ أكاد أسمعك تقول له (لا يمكنك أن تتركها يا لورنزو، لأن المسكينة منبوذة من خطيب سابق، عليك أن تتم الزواج رغم إرادتك!)».

ـ وهل كان من الأفضل أن أقول له أن يلقي بمسؤولياته ويمشي؟

التفتت إليه بعنف وقد التهبت عيناها: «لكنه نكث وعده لك على أية حال وقد فعل ذلك في أسوأ توقيت. ثم لماذا نتكلم عن الواجب؟ كنت سأتزوجه بدافع الحب وظننته يبادلني الشعور. لا أريد زوجاً من باب اللياقة الاجتماعية. لو انفصلنا في انكلترا لتغلبت على ذلك بفضل عملي وأصدقائي هناك. لكنك أردتنا أن نتزوج هنا لأن ذلك يناسبك، أردت أن تلعب الدور الرئيسي في

حياتنا، لكي ترضي نفسك. والآن، لورنزو اختفى، وأنا غريبة وحيدة هنا. أمك مريضة، وكل هذا لأن ريناتو مارتيلي أراد أن تجري الأمور على هواه».

لم يجب، لكنه بدا منهكاً فسكتت وقالت بكآبة: «آسفة. لم أكن أقصد أن أحملك مسؤولية مرض أمك».

ـ ولماذا لا؟ ذلك صحيح.

ـ نعم. ولكن ما كان لي أن أقوله. ما كان لي...

وتهدّج صوتها فأطبقت فمها مردّدة في سرّها إنها لن تبكي... لن تبكي.

ـ هيذر...

ومدّ يديه إليها لكنها تراجعت محمرة العينين.

ـ أحذرك، يا ريناتو... إذا لمستني فسأقتلك.

فتراجع، قائلاً: «ربما قلنا ما يكفي لهذه الليلة. أنا واثق من أنك تريدينني أن أتركك الآن».

لم تجب، وتملّك ريناتو عند تركها شعور لم يستطع أن يفهمه. كان رجلاً مقداماً، وقد دهش لما شعر به من رهبة تجاهها. لم يعرف كنه هذه المرأة التي تبدو وكأنها قدت من فولاذ.

لقد اقترف ذنباً لا يغتفر برأيه.

* * *

في اليوم التالي عندما غادر آخر ضيف المنزل، بحث ريناتو عن هيذر وقال لها: «أظن أنّ عليك أن تعلمي بأنني اقتفيت أثر لورنزو، إنه يقيم مع بعض الأصدقاء في «نابولي»».

تفادى النظر إليها فلم يتبين شحوب وجهها ولا دلائل الأرق على ملامحها، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة جفولها لدى سماعها بلورنزو. فسألته بهدوء: «وهل يعلم أن أمه مريضة؟».

ـ لا. لم أتحدث معه.

ـ يجب عليك ذلك. فعليه أن يعود ليراها.

فقال بحدّة: «لا لزوم لذلك. حالتها غير خطرة، وستأتي غداً إلى

البيت».

ـ لكن رؤيته ستعني لها الكثير.

ـ لكن ذلك سيوتر أعصابها.

فقالت بحزم: «أظنك مخطئاً. التساؤل عن مصيره هو أصعب بكثير عليها».

بعد فترة صمت، نظرت إليه فرأته يحدّق فيها مستغرباً ثم قال بهدوء: «أنت مصمّمة جداً على إعادته».

لم تكن تعلم أنها حادّة الطبع أحياناً، لكن كلمة ريناتو جعلتها تنفجر بحدة: «إذا كنت تعني ما أظنك تفكر فيه، يجب أن تخجل من نفسك. لقد انتهى كل شيء بيننا ولن أتزوجه مطلقاً».

ـ ربما تظنين أنك تعنين ذلك. ولكن إذا ما عاد طالباً المغفرة.

قاطعته بكآبة: «حسناً، أنت تعلم كل شيء عن تأثير سحر لورنزو... لأنك أنت من أرشده لتحصل على النتيجة التي تريدها».

سمعته يتنفس بقوة، فأدركت أنها أصابته في الصميم، وسرّت لأنه يتألم مثلها. وأضافت: «أستبعد أن يحاول استمالتي، خصوصاً بعد ما عاناه ليهرب مني».

ورغم جهدها، لم تستطع إخفاء تهدج صوتها عند تلفظها الكلمات الأخيرة. علّق ريناتو بمزيد من الرقة: «لم يهرب منك، بل مني أنا، فأنا أعرفه أكثر منك. تغدو الأمور أكثر أهمية لديه حين يفقدها».

رمقته بنظرة باردة متحدية، ثم علّقت ساخرة: «إذن ما زال لدي أمل، سيعود لورنزو إلى تمثيل دور العاشق، وسأكون أنا من الحماقة بحيث أصدق ذلك. وهكذا نلعب مجدداً لعبة العرس ونستدعي الضيوف فيحصل ريناتو على ما يريد».

فصرخ بها: «بحق الله، ألا يمكنك أن تفهمي؟».

توقف عن الكلام ثم تمتم: «آسف. أتمنى فقط لو أجد الكلمات المناسبة لأقولها».

- ألم يخطر ببالك أنها غير موجودة؟

- أخشى أنك على صواب، اسمحي لي أن أطلب الصفح، يا هيذر؟ لم أتصور قط أن شيئاً كهذا قد يحدث.

- لا، لأنك تريد أن تسير الحياة حسب رغبتك من دون مراعاة مشاعر الآخرين. فكرت كثيراً الليلة الماضية، بما حصل. لم نأتِ على سيرة الزواج مطلقاً قبل أن تدخل حياتنا. قلت إن لورنزو تحدّث عن الزواج بي، ولكنه صعق للخبر. لقد رأيت وجهه، فظننت أن التعبير الذي بدا عليه هو ارتباك بينما هو في الواقع دهشة.

فقال ريناتو مرغماً: «لقد أخبرني أنه إذا فكر في الزواج، فسيكون منك أنت».

- وحسمت الموضوع بتخيلات. أنا غاضبة منك لما فعلته فهو لم يكن مستعداً، وهو الآن ملام بنظر الجميع.

ردّ ريناتو بغضب: «كان بإمكانه أن يواجهني ويرفض».

- آه، أرجوك! ومن يمكنه أن يقف بوجهك؟

- أنت.

- وقد تحملت العواقب. والآن، أرى أن تطلب منه العودة لكي يرى أمه. أخبره بأنه لن يرى مني دموعاً ولا تعنيفاً، فأنا لا ألومه هو.

- لا تلومينه؟ بعد ما فعله بك...؟

- بعد ما فعلته أنت بي. حاول لورنزو تجنيبي الأذى لكنك منعته. لو تحدثنا معاً، لما حصلت هذه المهزلة ولا من يحزنون.

- وددت إخبارك بمدى إعجابي بك وتقديري لما أظهرته من كرامة وشجاعة، لكنني أعلم أن كلامي سيثير احتقارك.

- للمرة الأولى تنطق بالصواب. والآن، أرجوك اذهب واتصل بأخيك.

* * *

أمضت النهار كله في المستشفى. نامت بابتيستا مطولاً لكنها عندما استيقظت، بحثت عن هيذر فوجدتها على كرسي بجانب النافذة وابتسمت

بارتياح. عندما وصل ريناتو، نهضت هيذر لكي تخرج ولكنها سمعته يقول بصوت خافت: «سيكون لورنزو في البيت هذا المساء، يا ماما».

غادرت الغرفة قبل أن ترى نظراتهما مصوبة إليها، وذهبت لتناول فنجان قهوة. انضم إليها ريناتو بعد خروجه وقال: «كنت مصيبة فلقد أبهجها الخبر. أشكرك لإلحاحك عليّ، وأرجو ألا يكون الأمر صعباً عليك».

فقالت تطمئنه: «لقد مات شعوري تجاهه».

- يا ليتني أعلم مدى صحة كلامك.

- وهل هذا مهم؟ احصر اهتمامك بأمك.

- ولكنني أهتم بك أيضاً. أعتقد أنه علينا التحدث معاً قريباً...

- لا أظن ذلك.

- لا يمكن ترك الأمور على هذا النحو.

- طبعاً. عندما تتحسن حالة أمك سأرتب أمر إعادة فيلا «بيلا روزاريا» إليها، ثم أعود إلى انكلترا.

- ليس هذا ما عنيته. ثمة أشياء أخرى...

- لا، يا ريناتو، ما من أمور أخرى. سأعود إليها الآن.

حلّ المساء وما زالت بابتيستا مستيقظة. كان وعيها يزداد لأدنى حركة، فقالت لها هيذر: «سيكون هنا قريباً».

- عزيزتي، هل ستحطم رؤيته قلبك؟

فابتسمت هيذر بثبات، وردّت: «القلوب لا تتحطم بهذه السهولة».

- بل أظن ذلك.. لفترة قصيرة على الأقل.

فقالت هيذر بسرعة: «سأخبرك بشيء. لا تهمني فقط خسارة لورنزو... ولكن خسارة كل شيء. أخبرتك يوم ذهبنا إلى الفيلا أني شعرت بالانتماء لدى وصولي إلى صقلية. كنت واثقة تماماً من أن القدر أحضرني إلى البلد المناسب لكي أتزوج الرجل المناسب».

وأطلقت ضحكة قصيرة ساخرة، قبل أن تضيف:

- إنها سخرية القدر الذي يتلاعب بنا.

فقالت بابتيستا: «لا أظنك كنت مخطئة».

- بلى، أخطأت فهم الدلائل، حتى إنني بت مختلفة فلم أعد أعرف نفسي. لم أكن أتصرف على هذا النحو في الماضي. أما الآن فكل ما أريده هو أن يرى الناس انني لست بالمرأة التي يُخجل بها.

- إنه تأثير صقلية يا عزيزتي. وذلك الشعور بالانتماء كان حقيقياً. لم يكن السبب لورنزو بل صقلية التي رحّبت بك في بلدك.

- يا لها من نظرية ساحرة.

فقالت بابتيستا: «قد تعتقدين أنها مجرد تخاريف عجوز ولكن فكّري يا عزيزتي، انسي لورنزو وفكري في الأرض. لقد رأيتك تقفين على الشرفة تنظرين إليها، عندما كنت تظنين نفسك وحيدة، فكري فيها عند الصباح عندما يرتفع الضباب، أو عند الظهر عندما ترخي الظلال الداكنة ستارها على الوادي».

فقالت هيذر وكأنها تحدّث نفسها: «أو عند الغروب عندما يصبغ الشفق الأرض بلون ذهبي ناعم».

فقالت بابتيستا: «وكذلك اللغة التي تتعلمينها الآن بسهولة. كل شيء في هذا البلد سهل عليك، حتى حرارة الجو».

رأت هيذر أن ذلك صحيح. لقد أنعشها دفء الشمس هنا وارتاحت من التوتر فاكتشفت أحاسيس جديدة لم تكن في ظروف أخرى تشعر بها.

ولكن كل شيء انتهى. المحنة التي عانتها في الكنيسة بلّدت أحاسيسها، فراحت تتصرف بهدوء. وسيستمر الأمر على هذا الحال إلى أن تعود إلى انكلترا حيث تسترجع عاداتها القديمة مرة أخرى، وتضمد جرحها بنفسها بعيداً عن أعين الآخرين. لهذا السبب أعلنت بصوت واضح: «أنا انكليزية، يا ماما. وانتمائي يبقى إلى موطني».

فقالت بابتيستا بحزم: «لا أنت تنتمين إلى صقلية، ويجب أن تبقي كذلك».

لمعت فكرة في خاطرها فصمتت: «إذا كان تخميني مطابقاً لأفكارك

فالجواب هو لا. لا يمكن أن أتزوج لورنزو الآن».

- طبعاً لا.

وسكتت منتبهة لوقع خطوات خارج الغرفة. وفتح الباب فانكمشت هيذر لرؤية لورنزو. وفي الحال، شهقت بابتيستا بابتهاج وفتحت ذراعيها لابنها. وفي ثوان معدودة اجتاز الغرفة ليعانق أمه.

حاولت أن تنسحب قبل أن يراها، لكنه رفع بصره في تلك اللحظة ثم احمر وجهه بشدة. فقالت وهي تقبل بابتيستا: «سأترككما وحدكما».

ثم خرجت مسرعة.

انتهى المشهد بسرعة البرق فلم يتسنّ لها الشعور بأي شيء. لكن، عندما بلغت الممر اجتاحتها موجة من المشاعر الجياشة.. لقد أدركت بالمنطق أن زواجهما سيفشل لكن الوقت كان مبكراً لمواجهة لورنزو. استندت إلى الجدار وكبحت صرخة في فمها.

- هيذر!

تناهى إليها صوت ريناتو، فرفعت بصرها إليه وقالت: «وصل أخوك. وقد تركتهما معاً».

- وهل أنت بخير؟

صدرت عنها ضحكة قصيرة محيّرة: «ولماذا لا أكون؟ سأذهب الآن إلى البيت. تصبح على خير».

أمضت ليلة مزعجة حافلة بأحلام عن عشاق وأشهر عسل. كان البدر يعكس تألقه على البحر بشكل رائع، وضوءه يحيل الأراضي إلى فضة خالصة. كان أحرى بها أن تتوارى داخل البيت بدل أن تجلس على الشرفة وتفكر في رحلة بحرية في ضوء القمر، كانت لتجمعها بالحبيب. لقد كانت امرأة عقلانية لدرجة أنها استطاعت تخطي الألم في الأيام القليلة الماضية.

سمعت خطوات خلفها فالتفتت، وإذا بها ترى لورنزو واقفاً في الظل، وأحست به يأخذ نفساً عميقاً قبل أن ينضم إليها. حاولت أن تكبح معالم الألم البادية على وجهها لمجرد رؤيته.

قال بهدوء: «جئت أطلب المغفرة، ولأستمع إلى كل ما تريدين أن تقوليه لي».

رفعت رأسها وواجهته متصنّعة المرح، حتى أنها استطاعت أن تسبغ على ملامحها شيئاً من البشاشة. فسألته: «ما الذي تتوقعه؟ سيل من الاتهامات والتعنيف؟ دموع؟ كلام من قبيل: كيف تفعل هذا بي؟ دعنا نعتبره درساً. فليس لديّ الرغبة في افتعال مشهد مأساوي».

ـ لكن لا بد أنك غاضبة.

ـ أهناك سبب يدعو لذلك؟ أظنني كذلك نوعاً ما إذ كان عليك إخباري الحقيقة قبل العرس.

ـ صمّمت على ذلك لدى عودتي من ستكهولم، لكن ريناتو قال...

ـ كفى، كلما قل الكلام عن ريناتو، كلما كان ذلك أفضل.

وبعد هنيهة، تنهدت، وأضافت: «لقد آلمنا نحن الإثنين. وإذا كان من فائدة ترجى، فهي عدم اضطراري إلى مناسبته».

وضحكت ساخرة، قبل أن تتابع قائلة:

ـ ليلة تعارفنا، أخبرته أنني لن أتزوجك أبداً بسببه. كان يجب أن أفي بوعدي ولكنني نكثت به. إنها غلطتي، دعنا لا نضخم الأمور.

فقال بهدوء: «لشد ما أنت شجاعة وقوية، تجعلينني أخجل من نفسي».

رمقته بنظرة جانبية، وفي عينيها لمحة ساخرة.

ـ هل توقعت أن أقع فريسة مرض عضال لمجرد هروبك؟ لا تكن مغروراً. كل ما في الأمر أنك لم تكن مستعداً للزواج. وأنا احتفظ بدموعي لحدث أهم بدلاً من أن أضيعها سدى.

ـ هل حقاً لم تعودي تهتمين بي؟

ـ نعم لحسن حظنا، نحن الإثنين.

ـ لكن عشية الزفاف... في تلك الليلة، كرّرت على مسمعي مدى حبك لي...

فقالت بحدّة: «هذا يكفي. الماضي ولّى صدقني، فأنت لا تريدني حقاً

أن أصاب بالإغماء. أو حتى أن أقول إنك حطمت قلبي. سيضايقك ذلك حتماً».

فقال بسرعة: «نعم، نعم، طبعاً».

ثم لاح شبح ابتسامة ساحرة على فمه وقال بحسرة: «ومع ذلك، أما كان بإمكانك أن ترضي غروري بإظهار شيء من الحزن فقط؟».

ـ ولا ذرة... والآن، أخرج من هنا.

وهمّ بالخروج، لكنه جمد فجأة وقال: «لو كان الأمر مختلفاً... لو سمح لنا أن نخرج بحرية لنختبر مشاعرنا... ربما ما كنت عرضت الزواج. ولكنني كنت سأنتقدك لاحقاً وعندها من يدري...».

ـ كفى.

قاطعته فجأة بعدما نفدت قدرتها على الاحتمال، لأنها كانت تعذب نفسها بتلك الأفكار. وتابعت تقول: «لا تتحدث بهذا الشكل. أخرج، يا لورنزو، أرجوك».

ـ حبيبتي...

ـ لا تنادني بحبيبتك!

فقال بصوت أجش: «كنت أحبك حقاً. فقط لو أنهم منحونا بعض الوقت...».

فقالت بعنف: «أخرج».

أشاحت بوجهها عنه، ولم تتحرك إلا بعد ابتعاد وقع خطواته. كانت تتألم في الصميم. لقد انتهى حبهما، ولم يعد بوسعها أن تتزوج من لورنزو الآن. لم يبق من قصتهما إلاّ حفنة من الحنان وتعاسة بالغة.

وجد لورنزو أخويه في مكتب ريناتو يحتسيان العصير فقدم له ريناتو كأساً وعرض عليه الدخول.

ـ شكراً فأنا بحاجة إليه.

فبادره برناردو: «أنت الذي عرّضت نفسك لهذا الموقف».

ـ حسبت الأمر مخيفاً... دموع، وتعنيف...

فقال ريناتو: «أنت إذن لا تعرف المرأة التي كنت ستتزوجها فهي تتحلى بالكبرياء أكثر منك أو من أي منا».

ـ نعم، ولكن... من دون دمعة واحدة!! من دون كلمة رجاء.

ضاقت عينا ريناتو، وقال برقة: «يا إلهي، هي تعرف كيف تتعامل معك!».

ـ حتى أنني ظننت للحظة، أنها تتلاعب بي.

صفر برناردو بنعومة، وقال: «امرأة غير عادية».

قال ريناتو بحدّة: «نعم».

قال له لورنزو: «إنها تحملك المسؤولية كلها. لقد تألمت بسببك والحق معها. لو أنك ابتعدت عن شؤوننا، من يعلم؟».

فزمجر ريناتو قائلاً: «اعفني من نهاياتك السعيدة: وعاشا في السعادة والهناء... فأنا غير مقتنع بذلك».

فقال لورنزو: «ولكنني مقتنع».

ـ أنت مجنون. فات أوان إعادة التفكير.

ـ أنت تضع أمامي تحدياً. أليس كذلك؟ هيذر تعلم أننا كنا على ما يرام من دونك، وقد نعود إلى ما كنا عليه، فهي امرأة رائعة، وربما لم يفت الأوان بعد.

ولم يستطع أن يكمل، لأن يديّ ريناتو التفتا حول رقبته وعيناه تلمعان شراً.

ـ بحق السماء، يا ريناتو. كفى!

وجذبه برناردو وبعيداً عن لورنزو بكل ما أوتي من قوة، وصرخ ريناتو به غاضباً:

ـ أخرج من هنا. أغرب عن نظري.

فقال لورنزو بصوت متحشرج: «تباً لك. لماذا لم تبق بعيداً عن شؤوني الغرامية».

فقال له برناردو: «أخرج، بحق السماء. لن تتقاتلا لهذا السبب».

ألقى لورنزو نظرة على ريناتو ثم خرج، بينما بقي برناردو ممسكاً بريناتو إلى أن أغلق هذا الأخير الباب خلفه.

فصرخ به ريناتو: «دعني».

فتركه على الفور، بينما تابع ريناتو: «وما الذي تفعله هنا؟ لماذا لم ترافق صديقتك؟».

قال برناردو: «يمكنها أن تنتظر... إنها تستحق أن ينتظرها المرء».

ـ لا تقل إن هذه الأسرة ستحتفل بعرس رغم كل شيء؟

فمنحه برناردو إحدى ابتساماته النادرة وردّ: «أظن هذا، لكنني أقول هذا لك وحدك، وبصفتك رأس الأسرة.. هل توافق؟».

ـ وهل تمتثل لرأيي إذا كان مخالفاً؟.

ـ لن يمنعني رأيك.

ـ مبروك. فأنت رجل محظوظ.

ـ أعرف هذا. لا أستطيع أن أصدق ذلك، وما زلت أتوقّع فشل كل شيء.

فقال ريناتو بهدوء: «ليس هناك فشل، على الأقل سيكون أحدنا محظوظاً في الحب».

قال برناردو بضيق: «ما زال لورنزو أخانا».

ـ أعلم هذا.

ـ أظن أنّ عليك الحذر.

ـ منه؟

ـ لا، بل من نفسك، تصبح على خير.

خرج من دون كلمة أخرى، تاركاً ريناتو وحده، فريسة للتوتر الذي اجتاحه، مدركاً صعوبة الوصول إلى حل... حتى أن النوم لن يحل المسألة.

فمنذ أن طلبت منه امرأة الابتعاد عن طريقها، لم يتراجع بل توجّه مباشرة إلى الهاوية. لقد شجعها، بنفسه، على الارتماء في أحضان أخيه.

أدرك الحقيقة بعد فوات الأوان وقبل الزفاف مباشرة، حيث لا يمكن

لرجل شهم أن يتصرف عكس ما فعله. لقد لامست قلبه بضعفها، وجاء هذا الاكتشاف ليفقده توازنه. وفي خضم اضطرابه، قدم إليها العون بصفته أخاً ورافقها إلى زفافها.

في الكنيسة، بدا أن لورنزو حسم المشكلة، ولكنه لم ينسَ اعتراف هيذر للورنزو قبل ساعات من زفافها:

ـ أردت فقط أن أقول لك كم أحبك... أحبك... أحبك.

لطالما وقعت النساء في هوى لورنزو، ولم يكن شكله السبب أو أخلاقه الدمثة بل ذاك الجاذب الغامض فيه. لكن ريناتو لم يحسده على ذلك قط.

وفي المقابل، قُدّر لبعض الرجال أن يحرموا الحب. وفجأة، تراءى له وجه أمه المعذب حين أحضروه إلى المنزل بعد تعرضه لحادثة الدراجة النارية، ثم تلاه وجوه أخرى... فمن هيذر المصعوقة في الكنيسة... بسبب خيبتها المزدوجة في العمل والحب... مروراً بإغماء أمه وانتهاءً بوجه لورنزو، الشاحب اليوم.

الجميع يتألم بسببه، لأنه يدمر كل ما يلمسه.

***

٧ ـ هدوء ما بعد العاصفة

حان موعد مغادرة أنجي التي بقيت أياماً إضافية لمساندة صديقتها في محنتها. يجب عليها أن تغادر الآن إلى وطنها وعملها، لكن هيذر تعتقد أنها ستعود حتماً إلى صقلية لأنها لن تستطيع الابتعاد عن برناردو.

كانت تعلم أنه ليس نزوة عابرة بل هو حب راسخ لم يسبق أن عرفته أنجي من قبل. فاجأتهما ذات مرة، فسمعت صوت برناردو الأبح يتمتم بكلمات حب صادقة ومخلصة فانسلت مبتعدة. لكن الوقت لم يحمل جديداً لهما، كما اختفى عن الأنظار عشية سفرها. كان يخططان لأمر ما، كما فكرت هيذر، ولا بد أنهما سيعلنان خطوبتهما قبل رحيل أنجي.

عندما ذهبت إلى غرفتهما المشتركة، أدركت أن شيئاً رهيباً حصل. كانت أنجي تحزم أمتعتها بحزم وقد بدت على وجهها آثار الدموع فتذكرت هيذر معاناتها، وأمسكت بكتفي أنجي، تسألها:

ـ ماذا حدث يا عزيزتي؟ هل تشاجرت مع برناردو؟

فقالت انجي بمرارة: «آه، لا. لم نتشاجر. ليس هناك ما نتشاجر عليه. لقد أوضح لي بهدوء لماذا يفضل أن يموت على أن يتزوجني».

ـ ولكنه... شغوف بك، وهذا واضح لأي كان. ما هو الضير في أن تحبا بعضكما؟.

ـ هذا ما أظنه ولكن الحب لا يكفي. يقول إنه يحبني وإنه لن يحب امرأة أخرى أبداً، لكن قضيتنا مستحيلة.

www.elromancia.com

ـ ولماذا؟

أخبرتها أنجي، متعلثمة، سبب رحيلها عن الرجل الذي تعشقه والذي يبادلها الشعور. ولم تفهم هيذر شيئاً لأن هذه الأخيرة كانت عاجزة عن التركيز حيث تحدثت عن ذلك اليوم الذي أمضته مع برناردو محاولة عبثاً فهم تصميمه على الافتراق عنها. لقد تخلّى عنها رغم وعوده بالحب متجاهلاً جدالها وتوسلاتها الملتهبة المذعورة. كل ما أطلعها عليه أنه قد يتألم بعدها إلى الأبد ولكنه لن يتزوجها.

وأخيراً قالت هيذر: «لا أستطيع أن أستوعب ما يحدث معكما في أيامنا هذه وفي عصرنا هذا».

ردّت انجي بعنف: «برناردو رجل صقلي، لا ينتمي إلى جيله، فكبرياءه أهم مني أنا، ولذا أنا راحلة. وأرجوك يا هيذر، هلاّ كففنا عن التحدث في الموضوع؟ لأنني لن أحتمل أكثر».

لم تجب هيذر، لكنها احتضنت صديقتها مواسية وسألتها أنجي بصوت أبح: «ما رأيك في الرحيل معي؟».

ـ لا أستطيع ذلك قبل أن تتحسن بابتيستا ولكنني سأوافيك قريباً.

فقالت أنجي بابتسامة مضطربة: «سأحفظ لك غرفتك. لم نوّفق، نحن الاثنتين، مع الرجال الصقليين، أليس كذلك؟».

كان في إمكان هيذر أن ترافقها إلى المطار، لولا اقتراح برناردو إيصالها بنفسه. وهكذا تراجعت لتمنحهما فرصة قضاء اللحظات الأخيرة معاً، آملة أن يطرأ تعديل على مسار الأمور بينهما. فيعيد أنجي معه. لكنه عاد وحيداً فتبادل بضع كلمات مع هيذر وبابتيستا وانسحب ليعود الى خلوته في الجبال.

صرخت هيذر موجهة الكلام الى ريناتو: «ما به. تحدث إليه وحاول أن تقنعه».

ـ ليس لي أيّ تأثير على برناردو.

ـ إنه مجنون.

ـ نحن كلنا مجانين حين يتعلق الأمر بالمرأة التي نحبها.

ـ وما أدراك؟ فأنت لم تحب يوماً.

ـ هذا صحيح وعندما أنظر إلى أخوّي، أشعر بالسرور لذلك.

ـ نعم، فأنت تصون نفسك من الألم، أليس كذلك؟

وتنهدت ثم أضافت: «حسناً، يجب أن أتعلم طريقتك من باب الحكمة وأظن أن هناك الكثير ليقال».

فقال فجأة: «لا، لا تفعلي. إن هذا سيخفض من معنوياتك، ولا ينبغي لك هذا».

ـ في الأيام الأخيرة كنت أنت الأقدر فينا لأنني فقدت الشعور. وهذه ميزة كبرى، لأنك ترى بنفسك كم تصبح الحياة ملائمة. إننا محظوظان، يا ريناتو. لأننا لن نتألم كما يتألم أنجي وبرناردو، فليتألم الآخرون، ولكن ليس نحن.

أمسك بذراعها يمنعها من الابتعاد، قائلاً: «افعلي ما تريدينه ولكن لا تصبحي مثلي».

علقت بمرح: «لكنك المثل الذي يحتذى به، وأنا أحسدك».

ـ لماذا؟ لأنك تظنين أنني فقدت المقدرة على الإحساس؟ أنت مخطئة. أنا أتمنى أحياناً...

وشعرت بالرعشة تسري في جسدها وهو يقول: «غير مهم، سأتحدث إلى برناردو لكنه لن يفيد».

* * *

في اليوم الذي تلا عودتها من المستشفى، استدعت بابتيستا هيذر وريناتو إليها.

لم ترغب هيذر في الحضور إذ كان مزاجها متعكراً، بسبب ليال عديدة من الأرق. إن حصنها المنيع الذي بتته حفاظاً على كبريائها قد زحفت إليه موجة من التعاسة ستتحول إلى غضب لدى أول فرصة سانحة.

تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها بدت مضحكة، وأدركت أنها لو استسلمت لمرارتها لأصابتها نوبة ضحك هستيرية.

كانت بابتيستا مستلقية على أريكة في غرفة الجلوس الفسيحة. نظرت إليهما معاً وهما يقفان أمامها، متباعدين قليلاً عن بعضهما وقالت: «لا يمكننا ترك الأمور على حالها».

فقال ريناتو: «كان على لورنزو الحضور».

ـ لورنزو هو الماضي وأنا قلقة على المستقبل.

فقالت هيذر: «لقد خططنا له جيداً سأعيد لك الفيلا...».

ـ لنؤجل الحديث في هذا الموضوع لأنك إذا أرجعتها في السنة نفسها، سنواجه مشاكل مع الضرائب. أظن أننا لم نتحدث بعد عما حصل في الكنيسة.

أخذت هيذر نفساً عميقاً، وسألت:

ـ وهل هناك ما يقال؟ لقد انتهى الأمر.

ـ انتهى؟ لقد وجهت أسرتي إهانة لك؟

فاحتجت هيذر: «أعتبر كلمة (إهانة) رجعية بعض الشيء، عتيقة الطراز».

فقاطعتها بابتيستا: «وصقلية بلد عتيق الطراز، حتى في زماننا هذا. لو حصل الأمر معي، لقتل أبي الرجل رمياً بالرصاص من دون محاكمة».

فقالت هيذر، محاولة إضفاء المرح على الجو المتشنج: «حسناً، لن أطلق الرصاص على أحد، وخصوصاً على لورنزو».

قالت بابتيستا: «إني أتعاطف معك يا ابنتي».

وألقت على ريناتو نظرة كفيلة بتجميد الدم في عروق أي رجل عداه، لكنه تلقاها بتكشيرة ممزوجة بالحنان وبالاحترام. وأعجبت هيذر بتصرفه وقالت:

ـ لقد سبق واجتمعت بلورنزو، وأعلنا هدنة.

ـ وأنا شاكرة لذلك، ولكنها ليست خاتمة القضية. لقد سببت لك أسرتي الأذى، ولا يمكن أن نسمح بأن تتألمي.

ـ حسناً، لو استعمل ريناتو نفوذه لدى متجر «غوسوايز» حيث كنت

أعمل، وأعادوني إلى وظيفتي فلن يكون هناك من ألم.

فقطب ريناتو جبينه: «وهل هذه فكرتك حقاً عن التعويض؟».

قالت بحزم: «سأعود على الأقل إلى مكاني السابق قبل أن تدخل حياتي. فأستطيع الإدعاء بأنك غير موجود في هذا العالم. إنه حل رائع».

فقال بحدة: «شكراً».

ـ لا شكر على واجب.

قالت بابتيستا: «هذا لا يكفي. لقد تعرّضت سمعتك للتلطيخ وتأذى شرفك».

ـ ولكنني أخبرتك أن تصرّف الآخرين لا يمكن أن يؤثر على سمعتي.

ـ لكنه يؤثر على أسرتنا. لقد أهانك لورنزو وستتحمل الأسرة بأجمعها عبء ما حصل حتى نكفر عن ذلك.

أجفلت هيذر لنبرتها الواضحة، فقالت: «أنا لن أتزوج لورنزو الآن».

ـ حتماً لا. لكن لدي ابن آخر. أعرف أن تصرفاته معك لم تكن جيدة، لكن اللوم يقع عليه ويترتب عليه إصلاح ما أفسده.

وأضافت بابتيستا بطريقتها الملكية: «زواجك يجب أن يتم على الفور».

أعقب كلامها صمت صاعق. حاولت هيذر أن تتكلم فلم تستطع. وبدأت سيطرتها على نفسها تتلاشى، فأطلقت ضحكة مجنونة وهي تغطي فمها. كان الأمر جنونياً، ولا يمكن تصوره إلا في هذا المجتمع الذي يسنّ قوانينه الخاصة.

وأخيراً شهقت قائلة: «آسفة. ولكنه أمر مثير للضحك. أنا؟ أتزوج ريناتو؟ الرجل الذي لا أطيق النظر إليه؟».

وغرقت في نوبة ضحك جديدة.

نظر إليها ريناتو بعينين عنيفتين، ثم أخذ يتحدث بصوت غاضب منخفض. تكلم باللغة الصقلية فلم تفهم هيذر حديثه لكنها استطاعت أن تفهم

كلمات (مجنونة) (شيء لا يصدق) وكلاماً آخر خمنّت أنه يعني (ولا بعد مليون سنة). فقالت له: «وهذا ما أشعر به أنا أيضاً. آه، تحملني على الضحك مجدداً».

استنكرت بابتيستا بكبرياء ما يحصل: «في زمني، كانت الفتاة أكثر حكمة في تصرفها مع خطيب لائق».

فقالت هيذر بعدما هدأت قليلاً: «لكن ريناتو ليس خطيباً لائقاً. أولاً، هو لا يريد أن يتزوج على الإطلاق. وثانياً، هو لا يريد أن يتزوجني. ثالثاً، العيش في الجحيم أهون عليّ... هذا مستحيل».

فقالت بابتيستا: «جئت إلى هنا لتتزوجي ابني، وهذا ما يجب أن تفعليه. وبهذا تستقيم الأمور».

فقالت هيذر بقنوط: «لكنه تصرف خاطىء. ولا أعلم كيف تفكرون بهذه الطريقة. لن أتزوج ريناتو حتى ولو كان...».

أومأ ريناتو ببرودة: «الشعور متبادل. أنا أحترمك جداً يا ماما، ولكن يجب أن تنسي هذه الفكرة».

فقالت بابتيستا بحزم: «لا دخل لمشاعرك بالزواج. لقد أذيت فتاة محترمة ويجب أن تصلح الأمر».

فقالت هيذر بجفاء: «اتصال تليفوني منه إلى متجر «غواسويز» يكفيني».

قال ريناتو: «سأقوم بذلك على الفور، كما سأدفع نفقات العودة و...».

فقاطعته: «أحذرك يا ريناتو. ستندم إذا تجرأت على عرض نقودك عليّ».

- إنني آسف لأنني التقيت بك. آسف لأن أخي تعرف إليك. آسف لأننا رحبنا بك في بيتنا...

- من المؤسف إذن أنك أزعجت نفسك لإعادتي عندما خرجت من المطعم في لندن، كان عليك أن تدعني أذهب.

- لو تركتك، لصدمتك السيارة.

- لو أنني لم أهرب منك، لما تعرضت للسيارة.

- لو كنت عاقلة لما لذت بالفرار.

- أنا...؟ لو كنت...؟ لديك ذاكرة دقيقة للغاية. أخذت تتفحصني وكأنك تقيّم سلعة معروضة، ثم أبديت الموافقة، متوقعاً أن أكون شاكرة. أما بالنسبة إلى لورنزو المسكين... أتتذكر لورنزو؟ العريس؟... لم يعد يعرف رجليه من يديه.

- فهمت أنه عرض عليك الزواج في المستشفى.

- فقط بعد أن أعلنت أنت رغبتك في ذلك. بات لزاماً علينا جميعاً أن نوافق، أليس كذلك؟ لكنك أخطأت في الحساب الآن، تماماً كما أخطأت من قبل. أنا لن أتزوجك يا ريناتو، وهل تعلم السبب؟ لأنك برهنت، بعد تصرفك ذاك، أنك لست ملائماً بما يكفي. ولو جئت بمليون شهادة تزكيك، سأظل أقول إنك لست ملائماً بما يكفي.

فقال بحدّة: «في الحقيقة، اسمحي لي أن أذكّرك بأن الأصول في صقلية، تقضي بأن تنتظر المرأة من الرجل أن يطلب منها الزواج قبل أن ترفضه».

- أحاول توفير الوقت ليس إلاّ.

- ما كان لك أن تزعجي نفسك. فأنا لست بحاجة إلى القول بأنني أفضل أن أعبر المحيط، مثقلاً بالرصاص على أن أرتبط بامرأة لا نجني منها سوى الإزعاج.

- إذن اتفقنا، وكل شيء أصبح... أواه، يا ماما. آسفة.

تذكّرت هيذر لتوّها، مصدومة، حالة بابتيستا الضعيفة، لكن المرأة العجوز كانت تنظر إليهما معاً وقد تألقت عيناها. قال ريناتو: «نعم. وأنا آسف أيضاً. ليس من حقنا أن نفقد أعصابنا. فقلبك...».

- قلبي بخير، لكنكما أحمقان للغاية وأنصحكما أن تعاودا التفكير.

أجابا في وقت واحد: «أبداً».

- حسناً جداً. ربما عرضت الموضوع بطريقة غير مناسبة.

فقالت هيذر ضارعة: «ليس هناك من طريقة يا ماما تجعل ريناتو مقبولاً لدي. لا أريد أن أتزوجه، بل أتمنى لو أركله».

فقالت بابتيستا على الفور: «أنت على حق تماماً، فهو يحتاج إلى ذلك أكثر من غيره. عندما تصبحين زوجته يمكنك أن تفعلي ذلك كل يوم».

فقال متجهماً: «هل أمي التي تتكلم؟».

فردّت عليه أمه بحدّة: «لست عمياء عن أخطائك، يا ولدي. عثرت لك على زوجة رائعة، زوجة لن تجاريك في كل ما تقوله، زوجة لا يمكنك أن تخدعها أو أن تؤثر عليها».

فقالت هيذر: «هذا صحيح تماماً. ولكن ما دمت سأصلح مزايا ريناتو... والله يعلم أنه بحاجة إلى ذلك، فماذا أجني أنا؟».

فقالت بابتيستا: «تمكثين هنا وتصبحين عضواً في الأسرة، لقد خلقت للعيش في صقلية».

فقالت هيذر بعد أن استعادت توازنها وشيئاً من مرحها: «هذا أفضل ما قلته لي حتى الآن، يمكنك تحقيق الأمرين معاً من دون أن تحمليني عبء الارتباط بريناتو».

ـ لا يأتي السرور من دون ألم، يا عزيزتي، عليك أن تتحمليه.

مالت هيذر إلى الأمام وقبّلت وجنة بابتيستا مداعبة: «شكراً ماما. الثمن باهظ جداً».

فقال ريناتو: «نعم، باهظ جداً. فلنتسَ كلياً أننا ذكرناه».

وكان هو قد هدأ أيضاً رغم أن الغضب ما زال في عينيه.

وقالت بابتيستا خائبة: «في هذه الحالة، أخرجا... وقبل أن تغادر يا ريناتو، أحضر لي كأساً كبيرة من العصير».

* * *

عاد ريناتو في آخر النهار، وتوجّه مباشرة إلى بابتيستا. كان هادئاً وشاحباً لكنه تجنّب، بأدب، ذكر مشاكله المهنية، وكانت أحكم من أن تلح عليه.

فقالت بلطف: «لا بأس، ستتحسن الأمور. وهناك شيء واحد علينا أن نتطلع إليه، وهو زفافك بهيذر..».

* * *

عند منتصف الليل، خرجت هيذر إلى الحديقة. بحثاً عن السكينة فدارت في الممرات المتعرجة، تتنشق الهواء المعطّر بشذا مئات الورود التي أحضرت من حديقة فيلا «بيلا روزاريا». لقد أغرمت بتلك الشجيرات الشاهدة على حب أسطوري. هذا هو الحب الذي اعتقدت أنها نالته، فيما تود بابتيستا أن تقنعها بأقل منه. ظنت أن حزنها خمد، لكن حزناً جديداً تملّكها، يرسم لها المشوار الكئيب الذي ستسلكه حياتها.

جلست على حافة النافورة الحجرية متأملة المياه، وراحت تحرّكها بأصابعها فانكسر القمر المنعكس فيها إلى آلاف الأجزاء وعندما استكانت البركة انعكست عينان فيها. وأتى صوت ريناتو:

ـ ما كان لأمي أن تحمّلك هذه المسؤولية وأنا آسف لما قلته لك.

ـ وأنا أيضاً. يجب عليّ ألاّ أهاجمك بهذا الشكل فكل شيء انتهى. لم تنجح في تسيير حياة الآخرين وفق رغبتك ولكنني أرى الآن من اين ورثت هذه الطباع.

ـ لا تغضبي منها.

أطلقت ضحكة قصيرة مخنوقة: «لست غاضبة، فأنا أجدها رقيقة رغم ما تدّعي وتقول، صدقني!».

فقال بنبرة متوترة: «أوضحت رأيك بالمسألة».

ـ آسفة، فأنا لا أسخر منك... إنما من الوضع برمته..

حاولت أن تتمالك، لكنها وجدت أنها عاجزة عن ذلك فجأة. كانت تعتقد أنها تخلصت من ذلك المزاج الغريب ولكنه عاودها وأضحى الآن أسوأ من أي وقت مضى، وتردد صدى ضحكاتها الهستيرية حتى شعرت بالإنهاك وحلت الدموع التي كبتتها منذ زمن محلها.

قال ريناتو بإحباط: «هذا يكفي».

ثم شعر بارتجاف جسدها فأدرك أن احساسها قد تغير فأضاف: «من غير المعقول أن تبكي بعد كل هذه المدة؟».

حاولت أن تقول: «لا، لا طبعاً».

لكن الكلمات تهدجت في حلقها فسكتت. لقد سيطرت على نفسها طويلاً وبجهد بالغ ولم تود أن يراها بهذا الشكل إلا أنها لم تستطع مقاومة دموعها الغزيرة. قال بهدوء: «هيذر...».

- لا... هذا لا شيء... أنا بخير. كل ما أحتاجه هو...

- كل ما تحتاجينه هو أن تبكي لتتخلصي من مشاعرك الدفينة. إصغي إليّ...

وجلس بجانبها على حافة النافورة ثم أضاف: «كفي عن التظاهر بالقوة».

- علي أن أكون قوية، فأنا محاطة بسمك القرش.

- هذا غير صحيح، فأنا سمكة القرش الوحيدة ولكنني لن أفتك بك هذه الليلة. دعينا، ولو لمرة، نسقط كرهنا لبعض.

- لا أعرف... كيف أنسى.

فقال: «حسناً، أنت صادقة على الأقل».

ثم أضاف: «اكرهيني إذن، ولكن دعينا نعقد هدنة».

لطالما حدثت نفسها بأنها لم تتأثر بما حدث، ولكن هذا لم يكن صحيحاً. فكل السعادة التي حلمت بالاستمتاع بها، استحالت الآن إلى مرارة غمرتها من دون أن تجد عزاء في أحد، ما عدا عدّوها الذي اقترب منها هامساً بكلمات رقيقة استجاب لها قلبها. لم تكن نبرة صوته مفهومة، لكنها بعثت الدفء فيها فبدت الأمور أخف وطأة من السابق. ابتعد قليلاً ليتأملها رافعاً خصلة عن جبينها برقة متناهية وأضاف: «لم أظنك قادرة على البكاء... أو

ربما أنا فقط..».

استمرت دموعها بالتدفق، لكن كلماته الرقيقة خففت من تعاستها.

تمتم:

- لا شيء يستحق دموعك... فلا تبكي... أرجوك.

جمدت تماماً وهي تصغي إلى كلماته الرقيقة، تاركة جسمها يسترخي. فكرت في سرّها بأنه ما كان ينبغي لها أن تسمح له برؤية دموعها، لكنها تجاهلت هذا النداء مستمتعة بموجة عذوبة غمرتها. لقد تشاجرا منذ ساعات قليلة وربما سيتشاجران قريباً، لكن العالم انقلب في هذه اللحظة رأساً على عقب. وبدا تقربه منها طبيعياً.

- ريناتو...

همست بذلك، ولم تعد تدري أكان ذلك احتجاجاً ام توسلاً.

- هش! لماذا علينا دوماً أن نتشاجر؟

لم تشأ أن تتشاجر مع رجل يحاول مساندتها. صحيح أنها لا تثق به، ولكن ذلك لم يبدو مهماً حينها.

منذ قدومها إلى هذا البلد، اكتشفت أنها تستجيب بسهولة للمخاطر. وفكرت في أنه لا يوحي بالثقة لكنه يستطيع أحياناً أن يكون رائعاً.

ذكّرته بصوتها المبحوح: «قلت لي مرة... إنني أستطيع دوماً أن أطلب منك العون».

- أتذكر هذا.. لم يعلم أيّ منا أن هذا اليوم سيأتي.

لم يكونا يعلمان؟ واستغرقت في أفكارها ثم همست: «ساعدني على العودة إلى انكلترا لأنسى أنني جئت يوماً إلى صقلية».

- وهل ستنسيننا بهذه السهولة؟

تراجعت مبتعدة، محاولة أن تضع مسافة آمنة بينهما. وقالت:

ـ لا تسألني يا ريناتو، فأنت تعلم أنني غير قادرة على الاجابة. أرجوك ساعدني على العودة.

***

٨ ـ مزرعة الدموع

كانت فكرة بابتيستا أن تزور هيذر ڤيلا «بيلا روزاريا» لتقيم فيها، حيث قالت: «حان الوقت لتلقي نظرة على أملاكك شرط أن تزوريني باستمرار».

رحبّت هيذر بالاقتراح، وبالرغم من أنه لا يمكنها أبداً أن تعتبر هذه الأملاك لها لكنها ستكون مكاناً مثالياً تقيم فيه حتى تسوية الأمور.

استقلت سيارة من المرآب، ثم اتجهت إلى باليرمو ثم سلكت الطريق المتعرج المؤدي إلى قرية «إيلونا». وصلت عند الظهيرة وتمتعت في الطريق بشروق الشمس وانتشار نورها الباهر، فوق حقول القمح التي حصدت حديثاً وأصبحت سمراء بفعل حرارة الصيف الخانقة. وأدركت أنها تحولت إلى امرأة صقلية وأن بابتيستا على صواب. لقد أحبت المكان وهي لا تريد أن تبارحه.

يبدو أن بابتيستا قامت باتصالاتها، لأن هيذر وجدت الخدم في استقبالها. جهّزت «جوكاستا»، مدبرة المنزل، أحسن غرفة لاستقبالها هي غرفة مظلمة قديمة الطراز مسقوفة بقرميد قرمزي مؤثثة بالخشب القاتم. بدا الأثاث مترفاً، ودهشت لمرأى السرير الفسيح.

التقت وكيل الأراضي «لويجي» وهو رجل قصير أسمر تخطى الخمسين من العمر، عرض عليها أن يريها المكان. كان يتحدث بمزيج من الإنكليزية والصقلية، فتكلمت بالطريقة نفسها.

www.elromancia.com

دخلت اصطبلات معدّة لثلاثة جياد. خلال زيارتها الأخيرة تعلمت هيذر امتطاءها، وقد استعدت الآن لجولتها الثانية على ظهر الحصان مع «لويجي». كانت الطبيعة ترحب بقدوم الخريف وأخبرها لويجي أن الحصاد كان وافراً وأنه سيدر عليها الربح الوفير. فصمتت مرتبكة.

في أمسيتها الأولى أعدت لها جو كاستا وجبة خفيفة، من سلطة، وسمك ومعكرونة. لقد فتحت النزهة شهيتها، فتناولت القليل من كل طبق إضافة إلى حلوى الكاراميل بالبرتقال. وسرّت لرضى «جينو» الطاهي الذي يترقب ردة فعلها من خلف الباب. وما لبثت أن خلدت إلى النوم متعبة بعد نهارها الطويل.

تملّكها إحساس غريب وكأنها تعيش حلماً وأحست بأنها دخلت عالم النسيان. لقد خانتها أعصابها المتوترة أمام ريناتو في الحديقة، غير أنها شفيت من صدمتها.

أفادتها النزهات الطويلة على الجياد فاستعادت حيويتها، وقامت بعدة زيارات لبابتيستا متجنبة مواعيد تواجد ريناتو في المنزل. ارتاحت لأن بابتيستا نسيت مسألة الزواج واقتصر حديثهما على ثيلا «بيلا روزاريا». بقيت تطلب النصح من بابتيستا فكانت تعطي تعليماتها «للويجي» ووجدت نفسها مع الوقت مفتونة بإدارة المزرعة.

تساءلت عن رأي ريناتو في مسألة رحيلها، أو إدارتها للمزرعة التي أرادها لنفسه، بحسب لورنزو. لا شك في أنه سيأتي لمواجهتها وقد استعدّت له تماماً.

أصيبت بالخيبة لاختفائه عن الأنظار وتضايقت من إهماله لها، فثمة أمور عالقة بينهما!

في قرارة نفسها، كانت تعلم دوماً أنه سيسعى إليها. منذ دخل إلى المتجر في لندن، كانت تصرفاته تشير إلى ذلك. لطالما اعتقدت أنها مغرمة بأخيه ولكنها كانت تختبىء وراء ستار كاذب لتحمي نفسها.

أوشكا على الغرق يوم قاما بتلك الرحلة في المركب، وأثناء الحفلة

الراقصة التي سبقت عرسها. بعد فشل الزفاف انطوت على نفسها، والآن، تود أن تقابله مرة أخرى، لتتبيّن ردّة فعله تجاهها.

لكنه لم يظهر، كما أن لورنزو انتقل للعمل خارج البلاد. وذات يوم أشارت بابتيستا في معرض كلامها إلى أن ريناتو مسافر وأنها تشعر بالوحدة لغيابهما عنها.

أتاها برناردو للاستفسار عن أحوالها وبدا منهكاً فأثار شفقة هيذر. لهذا، دعته على العشاء وأمضي الوقت في الحديث عن أنجي.

كتبت لها صديقتها مرتين ولكنه التزم الصمت وكان يتنعش كلما ورد اسم أنجي.

لقد استلطفت هيذر برناردو وأمضيا سهرة لطيفة جعلتهما صديقين حميمين.

كان الإغراء كبيراً بالبقاء في المزرعة لكنها أرغمت نفسها على الاتصال بلندن. وصدقت توقّعاتها إذ شغل مكانها في المتجر ويمكنها العودة بصفة بائعة عادية برتبة أقل مما كانت عليه. لم يتدخّل ريناتو إذاً لمصلحتها كما وعد وانتهى الأمر.

* * *

مضى أسبوع قبل أن ترى سيارة ريناتو في الطريق المتعرج المؤدي إلى القرية تماماً عند الغروب. ونزلت السلم الخارجي.. راسمة على وجهها ابتسامة مرحبة.

لكن القادم لم يكن سوى لورنزو الذي أطل من السيارة ملوحاً بيده وكأن شيئاً لم يحدث.

- مرحباً، جئت أسألك عن حالك.

تمالكت نفسها لتبدو طبيعية. لماذا لا يأتي ريناتو؟ لماذا لم يأتِ إلى هنا بدلاً من أخيه؟ ردّت باسمة: «بأحسن حال فقد أعجبني المكان».

- بمفردك؟

- ثمة أشياء أسوأ من الوحدة، تفضل بالدخول.

صعد السلم، وبدا جذاباً في السروال البني والقميص الأزرق المفتوح. بدا خالي البال لكنها لم تعد تبالي بعد أن أصبحت مشاعرها نحوه من الماضي.

- أحضرت لك هدية للمنزل.

وفتح طرداً ملفوفاً بأناقة يحوي تمثالاً من المرمر لأمرأة إغريقية.

- إنه مقتبس عن قطعة أصلية في المتحف الوطني وقد اخترتها لأنها تشبهك. لقد اشتريتها في الواقع، منذ أسابيع خلت ولم أكن أجرؤ على تقديمها. ولكن بما أنها هدية للزينة...

هز كتفيه كولد مراهق فتقبلتها راضية.

- لقد أعجبتني كثيراً. وأنا أعرف المكان المناسب لها.

وقادته إلى حديقة الورود لتضع التمثال في كهف صغير، وسرّت لتناسبه مع المكان. قال لورنزو موافقاً: «جميلة. أتحبين هذه البقعة؟ أعلم أنها كانت دوماً المكان المفضل لدى أمي».

لعله لا يعرف قصة «فيدي» المزارع الشاب. وتساءلت هيذر عما إذا كانت بابتيستا تمانع في الإشارة إليه. لكن كلمات لورنزو التالية جمدت الكلمات في حلقها: «ألا تظنين أن المنزل كئيب نوعاً ما؟ لطالما رأيته كذلك».

- أبداً. إنه منعش وهادىء. وأنا أحبه جداً.

- كنا نمضي فيه بضعة أسابيع في الصيف. وأتذكر انني كنت أتلهف لمغادرته.

قضت كلماته على حلمها السابق بالعيش معه في هذا المنزل. عاشت مع لورنزو كذبة كبيرة من اختراعها ولو تعرفا فعلاً على بعضهما مدة أطول، لرأت حقيقة افتتانها به.

تناولا شراباً على الشرفة المطلة على الحديقة، وبدا المكر على لورنزو وهو يقول: «لقد سمعت بخبر المشاجرة».

فسألته بفضول: «المشاجرة؟».

- الكل يعلم بمحاولة ترتيب أمر زواجك برياناتو، لكنك سخرت من الموضوع. يا ليتني كنت هناك لأتفرج على أخي، الذي أمضى معظم حياته يتباهى بتفادي الزواج، يواجه الإذلال من امرأة.

فقالت بحزم: «لم تسر الأمور على هذا النحو. لقد اعترضنا معاً على الفكرة».

بدت كلماتها حاسمة ولكنها فضلت إنقاذ كبرياء ريناتو بغض النظر عن شعورها نحوه. فهي لن تحوله لقمة سائغة للسخرية.

- أنا واثق من أن الفكرة لم تعجبك، أما ريناتو فأعتقد أن استعادة هذا المكان تغريه حتماً.

- لكنني سأعيده إلى أمك حالما تنتهي المعاملات الرسمية.

- لقد رفضته. لم يسبق لامرأة أخرى أن رفضته.

وتابع لورنزو ضاحكاً: «لقد رفضته حتى قبل أن يطلب يدك. أراهن على أن كرامته جرحت لأن مزاجه ما زال سيئاً حتى بعد عودته من أميركا. حذار، كدت توقعين كأسك».

عاد إذن. ولم يتصل بها. حسناً، ولماذا يتصل؟.

لا يحق له أن يتركها على نارها.

وقالت: «دعنا من الموضوع. فأنا لن أتزوج ريناتو».

- لن أراهن على ذلك، لقد سخرت منه وهو لن يغفر لك.

- ما الذي تقوله؟ هل سيحاول أن يستدرجني انتقاماً لكرامته!

- لن أقول ذلك ولكنه لم يتعود استمالة النساء لأنهن هن اللواتي يلاحقنه.

لم تجب، فبدت على فمه ابتسامة اعتذار، وهو يقول: «كانت علاقتنا لتستمر لو لم يتدخّل».

فردّت: «لا نعرف ما يخبئه المستقبل، لقد أصبح ذلك من الماضي».

ذات يوم أحبت هذا الرجل كثيراً، حتى أن الدنيا لم تكن تتسع

لفرحتها... أو هذا ما ظنته حينها.

تنهدت، وابتعدت عنه خائبة. لقد خسرت حبها للأبد وهذا ما كانت تود معرفته. لا شك أن لورنزو فتى وسيم ولكنه يفتقر إلى النضج والرجولة اللتين يتحلى بهما أخاه. والتفتت جانباً فرأت ريناتو يحدق بهما ساخراً وهو يقول: «لم أدرك أنكما ستكونان مشغولين».

فأجاب لورنزو بوقاحة: «كان عليك أن تدرك ذلك، إذن».

تقدّم ريناتو وأمسك بذراعه، قائلاً: «كنت على وشك أن تغادر».

فرد لورنزو ساخراً: «أحقاً؟».

شعرت هيذر بالغضب لتحكمه بهما: «لقد دعوت لورنزو على الغداء لتوي وقد قبل الدعوة».

نظر لورنزو إلى ريناتو متحدياً ولكنه غيّر رأيه سريعاً، فقال لها: «ربما في وقت آخر».

حاولت هيذر أن تثبت وجودها كربة البيت، رغم علمها بعدم جدوى ذلك، فقالت بحزم: «الآن، سيعد «جينو» طعاماً لإثنين...».

أعلن ريناتو وهو يتأمل لورنزو مدهوشاً: «هل ما زلت هنا؟».

ـ أنا راحل في الحال.

ولوّح بيده لهيذر قبل أن يذهب.

عندما أصبحا وحدهما، التفتت إلى ريناتو الذي كان ينظر إليها برودة، والازدراء في عينيه. فثار غضبها لذلك، وقالت: «جرأتك تفوق الوصف».

فقال: «أقدم اعتذاري».

لكن لهجته لم تكن تحمل أيّ اعتذار، وتابع يقول: «أردت التخلص منه وكانت تلك أسرع طريقة».

ـ وهل سألتني ما أريده.

ـ لم يكن واضحاً ما تريدينه. ظننت أن لديك كرامة.

ـ كيف تجرؤ؟

ـ آه، أرجوك. كان ذلك واضحاً. لا شك أنها الخطوة الأولى في إغرائك له ليبقى.

شهقت، وهمت بضربه، لولا أن قال:

ـ لا تهاجميني لمجرد أنني صارحتك بالحقيقة. إذا كان هدفك أن تستعيدي لورنزو، فلن تنجحي بهذه الطريقة.

أعماها الغضب فردت من دون تفكير: «لو شئت أن أوقع به لفعلت ذلك من قبل».

وبدا في عينيه ضوء غريب: «هل تعنين أنك لم تفعلي هذا قط؟».

تنفست بحدة وقالت: «دعني وشأني».

ـ أخبريني.

ـ لن أخبرك شيئاً. فهذا ليس من شأنك.

ـ قام لورنزو بالصواب في هروبه ذلك اليوم وإلا خاب أملك. أنت تعرفين ما أعني، أليس كذلك؟

أدركت قصده فتسارعت نبضات قلبها، لكنها لم تقر أمامه، فأجابت: «إذا كان هذا رأيك، فمن المؤسف أنك دفعتني إلى الزواج به».

ـ لم أكن أدرك حينذاك. لم يكن أيّ منا يعلم، ولكننا نعلم اليوم بأنه كان سيخذلك، ثم...

ـ ثم...؟

لم يكن من داعٍ للرد لأن الجواب كان بديهياً...

وهمست محتجّة: «لو كنت زوجة لورنزو، لأخلصت له حتى النهاية».

فصحح كلامها: «حتى يفرق الموت بينكما».

ـ إذا اقتضى الأمر.

ـ ولا يهم إن كانت النهاية مرّة لنا جميعاً؟

وقسا صوته وهو يتابع قائلاً:

ـ كنا احترقنا جميعاً في نار صنعناها بأيدينا من دون أن تبالي أنت بذلك.

ـ لن يحصل لك شيء إذ لديك تسليات أخرى.

ـ لسن أحياناً كذلك . . .

وانتبه إلى زلة لسانه فسكت فجأة، ثم سألها بعد لحظة: «هل أخبرك عن النار الحقيقية؟».

ـ أنا واثقة من أنك جربت أنواعاً كثيرة منها.

ـ هو الحب من دون رغبة، والرغبة من دون حب.

أخذت نفساً مرتجفاً، وقالت: «دعني أذهب، يا ريناتو، دعني أذهب الآن. ليس لك الحق في إفساد حياتي».

وتراجعت إلى الخلف، لكن عينيها تشبثتا به كما لو أنه وحش يتأهب للانقضاض عليها. لقد أدركت أن عليها أن تعامل ريناتو كعدو لتأمن شره. كان غضبه مكبوتاً ووجهه أكثر شحوباً مما رأته من قبل. وأدركت أن سيطرته على نفسه قد تتلاشى في أية لحظة.

وإذا بخطوات مدبرة المنزل توقظهما من حلمهما المحموم، فالتفتا إليها بابتسامة متصنعة. وتلاشى الجو المشحون بلمح البصر، وحمل معه ذكرى ما كان يمكن أن يحصل. رحّب ريناتو بجو كاستا كصديق قديم، ورأت هيذر مقدار سرور هذه الأخيرة لرؤيته. وعندما أخذا يتجاذبان أطراف الحديث باللغة الصقلية تنحّت جانباً محاولة أن تريح أعصابها بعد شجارهما القصير. لقد تشاجرا، مرة أخرى، بعد دقائق قليلة من اجتماعهما، لكن الشجار مع ريناتو كان مثيراً.

كان ريناتو يرتدي ثياباً بسيطة على غرار لورنزو ولكنه بدا مختلفاً، مميزاً برجولته الصارخة.

وتبدد غضب هيذر. غاب ريناتو عنها طويلاً، والألم الخفيف الذي شعرت به في صدرها، تفاقم مع ظهوره رغم صعوبة اعترافها بذلك لنفسها.

قالت جوكاستا وهي تسكب له كأسه: «مشروبك المفضل، يا «سنيور»».

فقال من دون خجل: «هذا مناسب لأنني تلقيت دعوة طارئة للغداء».

فأشرق وجه جوكاستا: «سأخبر جينو إذن أن يعد بعض كرات اللحم في مرق البندورة كما تحبها».

فقال ريناتو: «لا تعديها للغداء، لأنها تأخذ وقتاً ونحن نريد أن نأكل سريعاً قبل أن نخرج، دعيها للعشاء».

وعندما أصبحا وحدهما، قالت هيذر: «أنا لم أدعك للغداء أو للعشاء».

ـ لكنك كنت على وشك أن تفعلي ذلك. لقد لاحظت هذا.

إنه يتقصد أن يغيظها فهي لم تظهر سرورها للقياه. لقد وصل في توقيت غير مناسب لأنها انتظرته أسابيع عديدة من دون جدوى.

إنه بارع في وضعها دائماً في موقف الدفاع، مفسداً ما يمكن أن يكون زيارة سارة. . . تساءلت هيذر، كيف استطاعت أن تحتمل غيابه كل هذا الوقت الطويل؟ وتمنت لو تستطيع ضربه.

قاطع حبل تأملاتها معلناً: «سنخرج بعد الغداء مباشرة وليس هناك وقت نضيعه».

عندما جلسا إلى مائدة الغداء، وضع كل منهما قناع التهذيب، وتظاهر ريناتو بأن شيئاً لم يحدث.

وتمنت هيذر لو تحظى ببرود أعصابه.

سألها ريناتو: «أخبريني عن حالك أثناء غيابي».

ـ استمتعت بغيابك إلى حد كبير. هل تعدني بإطالته مجدداً؟

ـ لا أستطيع تلبية طلبك حالياً لأن هذه المزرعة من أكثر أراضينا إنتاجاً وأنوي أن تبقى كذلك، وهذا يتطلب منك تحسين إدارتك لها. يتحمل لويجي المسؤولية طبعاً ولكن إذا كنت جاهلة، فلن يحترمك.

ـ ولكن. . .

رغبت في أن توضّح له مجدداً أنها ستعيد إليهم المزرعة، لكنها تخلت

عن ذلك. حتى الساعة لم يصغِ إليها أحد، ويبدو أن ريناتو ليس مستعداً لذلك الآن.

قال: «اقترب موسم الحصاد ولكن إذا كنا محظوظين، سنظفر بعدة أيام من الصحو، وهذا هو سبب حضوري الآن فلنذهب».

تجمع حشد قليل من الناس ليروهما يصعدان في سيارته المكشوفة أمام الفيلا، فشرح لها: «إنهم المستأجرون في أملاكك».

- أتعني أن بعضهم يعيش في بيوت تعود إلى المزرعة؟

- بل يعيشون في «إليونا» القرية التي تملكين.

- ولكنني ظننتها بيتاً أو اثنين فقط...

- إنهم يراقبونك بتمعّن لأن تصرفاتك قد تؤثر على مجرى حياتهم.

أراها ريناتو كروم العنب والزيتون وبساتين الفاكهة المزهرة. وشاهدت الفلاحين يحتفلون بالحصاد الوفير، آملين الحصول على قروض لتحسين الموسم القادم. أحست أنها تدخل عالم ريناتو، لكن عليها أن تعترف بأن تصرفه كان رائعاً. لقد أشركها في كل حديث وعاملها باحترام مجيباً عن كامل استفساراتها.

في مزرعة الأغنام التي زاراها، تحاورت بذكاء مع الأسرة المستأجرة فلاقت الاستحسان واستطاعت بخليط من الإنكليزية والإيطالية والصقلية، أن تخبرهم بأن عمها كان راعياً للماشية.

- اعتدنا قضاء إجازات معه. كان يسمح لي بأن أساعد في توليد النعاج، وقد عشقت ذلك فعلاً.

واسترسلت بالكلام مستمتعة، فدعوها لرؤية أحسن فصيلة لديهم وكانوا يراقبونها وهي تمرر يدها على الخراف بإلفة. وتشعّب الحديث عن البيطريين، ومدخول هذا القطاع فضلاً عن طرق حلب الماشية. كما تحدثوا عن معاناتهم لكنهم لم يتوقعوا منها أن تقدر ذلك.

نظرت حولها فوجدت ريناتو مبتسماً وكأنه فاز بجائزة. احتارت هيذر في شأنه. وفي طريق العودة، إزدادت شكوكها، فكل بيت مرّا به في قرية إليونا

كان مفتوحاً وأمامه العيون الفضولية. بدا جلياً أن نظراتهم تحمل مغزى معيّناً فتملكها الخوف مما قد يظنونه.

وعندما بلغا الڤيلا، قال ريناتو: «غداً ستتمطي الجياد».

- وهل ستعود غداً؟

- سأبيت الليلة هنا. هل لديك اعتراض؟

- لا، أبداً. سأخبر جوكاستا لترتب أمتعتك في الغرفة.

- لا حاجة لذلك. أظنها سبقتك ورتبت أمتعتي في الغرفة.

وكان محقاً، فجوكاستا لم تخرج أمتعته وحسب، بل طلبت تحضير عشاء يناسبه. ولم تعرف هيذر سبيلاً إلى الاحتجاج على استلامه مقاليد الأمور، إذ لا يحق لها التذمر.

استمتعا بمنظر الغروب خلال جولتهما في الحديقة. وراح ريناتو يحدّثها عن ذكريات الطفولة.

- كنت أعشق اللعب هنا أكثر من أي مكان آخر فالمكان مثالي للعبة قطاع الطريق. اعتدت أن أحضر صبية القرية إلى بيتنا وكنا نتحدث.

فابتسمت هيذر، وقالت: «أتساءل عن ردة فعل بابتيستا بالنسبة لحديقة الورود».

- لم تكن تهتم. أرادت أن يعم الفرح المكان.

بلغا شجيرة الورد فجلسا على مقعد خشبي تحتها، فيما تابع كلامه:

- اعتدت أن آتي في المساء لأجدها جالسة في هذه البقعة مغمضة العينين.

فسألته بحذر: «ألم تعرف السبب؟».

- أتعنين إن كنت أعرف بأمر «فيديريكو»؟ نعم أخبرني البستاني الذي عمل هنا سنوات طويلة وهو يعرف القصة كلها. يبدو أن شائعات كثيرة انتشرت عندما اختفى ذلك الشاب فجأة.

فقالت هيذر: «لقد تعدت الأمور نطاق احتمال بابتيستا. أنت لا تفكر في احتمال أنه...؟».

- أشك في ذلك. ولكن علي أن أعترف بأن جدي كان رجلاً لا يحتمل

المعارضة.

تناولا العشاء في المكتبة وتحسن مزاج ريناتو فمضى في سرد ذكرياته عن الفيلا مربع طفولته.

ـ كنت أعلم أن لهذه الفيلا معزة خاصة في قلب أمي، ولهذا السبب احببتها بدوري.

ـ سأعيدها إليك إذن.

نظر إليها ساخراً: «ثمة طريقة واحدة لذلك».

فردت على الفور: «ليس الزواج. اتفقنا معاً على رفض فكرة الزواج».

ـ أمي ماهرة جداً في الإقناع، وأنا شديد الإحساس بالمسؤولية.

وضعت مرفقها على المائدة ونظرت في عينيه بحزم: «كلام فارغ. لا أدري أي لعبة تلعبها، لكن يمكنك أن تنساها. ما من زواج.. الآن أو لاحقاً. ويمكنك أن تعتبر كلامي نهائياً».

ردّ على كلامها بابتسامة عريضة ثم قال: «لنفرض أنني غيرت رأيي».

ـ آه، كفى! أعرف أنك تهدر وقتك، ولكن لا يجوز أن تجعل القرويين يصدقون ذلك. أتظنني لا أعرف لماذا خرجوا جماعات ليتفرجوا علينا؟ عليك أن تكف عن الإيحاء لهم بذلك.

ـ لا يجوز لمن؟

ـ لهم. لأن الفكرة قد أعجبتهم على ما يبدو.

ـ نعم. لقد أحبك الناس، وسينتشر في كل أنحاء المنطقة، خبر أننا تفقدنا أملاكنا الزوجية.

فضحكت: «سيتغير رأيهم لو استطاعوا أن يسمعوك تقول إنك تفضّل رمي نفسك في البحر على الزواج بي».

فأجفل قائلاً: «لم أقل كلاماً كهذا. وعلى أيّ حال، لسنا معصومين عن الخطأ».

لكنها رفضت أن تبتلع الطعم، وهبّت واقفة: «أنا ذاهبة إلى السرير».

ـ أنت على صواب، يجب أن ننهض باكراً في الصباح فلا تتأخري. لا أحب المرأة التي تجعلني أنتظر.

وكان كلامه استفزازاً صارخاً لها فقالت محاولة إغاظته: «سآتي لأركل قدميك».

ـ وتعملين بنصيحة أمي. لا تنسي أنها نصحتك بذلك. أنظري، أصبحنا نتصرف كزوجين عتيقين.

لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك بينما عليها، على الأقل، أن تبقى على خصام معه. ولكن رفقته مسلية بالرغم من أن تصرفاته مزعجة في الغالب. إنه أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية فشعرت نحوه بمودة أكثر من أيّ وقت مضى.

قال: «ضحكتك الآن أفضل من آخر مرة سمعتها منك».

وعنى تلك الليلة في الحديقة، حين ضحكت قبل أن تنفجر بالبكاء. تلاقت نظراتهما فحوّلت عينيها باضطراب عنه.

صعدا السلم معاً، وأمام باب غرفتها أمسك بيدها قائلاً بلطف: «تصبحين على خير ياهيذر».

ثم تابع السير نحو غرفته من دون انتظار جوابها.

عندما أغلقت بابها استندت إليه فترة طويلة تستمع إلى دقات قلبها.

ريناتو يريد أن يتزوجها، أو يؤيد فكرة الزواج بالأحرى، لأن الأسرة تحتاج وريثاً. وأثبت لورنزو فشله في المهمة، فيما سلم ريناتو رقبته للنير مكرهاً، فزواجه سيرضي أمه كما يرضي إحساسه بالواجب.

وماذا بعد؟؟

لقد تحدته، سخرت منه، ورفضته بازدراء. لا شك أنه يرغب بها. ولكن ما مصيرها عندما يثأر لكرامته وينال مبتغاه؟

تذكرت كلماته التي فضحت رأيه بالموضوع: الحب من دون رغبة

كالنار وكذلك الرغبة من دون حب. . . الرغبة من دون حب. . .
وأخيراً استسلمت للنوم.

* * *

٩ ـ معبد الحب

على مائدة الإفطار، بدت هادئة، وأدهشها تحكم ريناتو بمشاعره. . .
شعرت بالإهانة لقدرته الهائلة على التحكم بمشاعره ولسهولة تبدل مزاجه. حمدت ربها لأنها لم تظهر أي ضعف تجاهه وإلا لسيطر على الموقف، وهو ما لن تسمح به.

يبدو أنه لم يلاحظ شكوكها. كان يتحدث بإيجاز، ويبتسم رغم أن الإنهاك بدا جلياً عليه.

أينما ذهبا، فوجئت بأن الناس لا يعتبرونها أجنبية أو حتى غريبة. لقد تيقنوا من أن ريناتو اختارها زوجة له، واعتبروا الزواج مؤكداً.

أمضيا وقتاً ممتعاً ترك تأثيره عليهما، فلطف مزاجهما، وخفف من توترها. توقفا عند مزرعة وجلسا في الشمس يحتسيان العصير. سحرتها صقلية منذ البداية وأينما وقعت عيناها، وجدت شيئاً جديداً ممتعاً.

أشارت إلى أطلال معبد إغريقي بعيد، ترعى بجانبه بعض الأغنام والماعز، وقالت:

ـ أحب تلك الآثار إنها حضارة عريقة تحاكي واقع الحياة اليومية. الرهبة لا تتملك الأغنام في هذا المكان والماشية لم تخف من روعة المعبد.

أومأ موافقاً.

ـ إنه معبد «سيرس» معبد الخصب والخيرات. وكلما ازداد الغنم كما كان أفضل.

ـ هذا الانسجام ينبيء بالكثير عن طبيعة هذه البلاد.

www.elromancia.com

- أتعرفين إلى أي حد تبدين صقلية؟ تتحدثين وكأنه بلد منفصل عن إيطاليا وهذا شأننا نحن الصقليين.

- نعم، لاحظت ذلك. إنه عالم منفصل بذاته ولا يضاهيه أي مكان آخر في العالم.

- وهل ستتركينها؟ أتديرين ظهرك للترحيب الذي لاقيته؟

فتنهدت: «أنت رجل ماهر جداً. قد غيّرت تفكيري ببساطة، وحسمت أمك الموضوع. جعلت الكل يعتقد أن زفافنا أمر واقع».

فقال بلباقة متجنباً الردّ على اتهامها له: «دخلت حياتنا حاملة معك قيماً، ولغة مختلفة. والآن وجدت مكاناً يناسبك تماماً، فشخصيتك تثري حياتنا وقد لمسنا جميعنا ذلك. ألا ترين ذلك؟».

همست بغموض: «ربما لأنك جزء من الصفقة».

منحها ابتسامته العريضة مفعمة بالحيوية فاضطربت.

- كوني شجاعة، فأنا لست بهذا السوء.

- بل أنت كذلك.

- أنا لست كذلك.

- بل أنت كذلك.

وضحكا معاً. وجدا متعة في الجلوس معاً وأرادت أن تجاريه في لعبته فسألته بمكر:

- لماذا غيرت رأيك؟ فمنذ أسبوعين كنت تعارض بشدة فكرة الزواج.

- لقد تحدثت أمي إليّ بحزم وخضعت لرغبتها خوفاً.

- آه، كفى. أنا أتكلم بجدية.

- فلنكن جادين إذن. يمكن لزواج المصلحة أن ينجح عند توافر الرغبة الصادقة بإنجاحه لدى الطرفين. لقد رأينا، نحن الاثنين، مخاطر الإذعان، أليس كذلك؟

فتنهدت: «إذا كنت تعلل الأمر بهذا الشكل، أظنك محقاً».

- لنسمها صفقة! هيا، قولي نعم لكي أتصل بأمي.

- أظنها جالسة قرب الهاتف متشوقة لسماع الجواب؟

- ربما، ولكنها تدرك أن الأمر تقرر فعلاً.

فقطّبت جبينها: «تقرر؟ انتظر لحظة، لم يتقرر شيء بعد».

- لقد اسأت التعبير ولكنني أبلغتها أن احتمال فوزها ارتفع عندما بحثنا الموضوع بروية.

فسألته هيذر: «هل قلت لها إن قبولي أمر مفروغ منه؟ (امنحيني يا أمي عدة ساعات فقط لأحاورها بالمنطق بعدها يمكنك إرسال بطاقات العرس)؟ هل هذا ما قلته؟ ألا يكفي أنك أوهمت الناس هنا، بل تجرأت على خداع أمك؟».

ونهضت بسرعة، فتبعها ريناتو وهو يشتم.

- هيذر، ألا تصغين إلى المنطق؟

- لا، لأن منطقك لا يعجبني. حركت الأمور خفية لكي تزوجني لورنزو رغم إرادته. والآن تظن أنك تسيّر الأمور على طريقتك مجدداً للإيقاع بي. يجب أن توضع في قفص وأن يراك الناس ليعلموا أنني لن أتزوجك ولو خلت الدنيا من صنف الرجال.

بدا العناد على ملامحه: «ولكنني أعطيتها كلمتي».

- وكلمتي أنا؟؟

- نحن في صقلية، حيث لا قيمة لكلمة المرأة مقابل كلمة الرجل.

- حسناً ربما لست صقلية إلى الحد الذي تظنه.

- لماذا لا تواجهين ما لا مناص منه؟

- لأنني لا أظن أنه قدري، فأنا مخلوقة لمصير أفضل من محاولة إنقاذ كبريائك الجريحة. عد إلى علاقاتك العابرة، يا ريناتو. هذا كل ما تصلح له.

شهقته السريعة أنبأتها أنها أصابت وتراً حساساً فاندفعت إلى حيث كان جوادها. ابتسم لها المزارع فازداد اقتناعها بأنها وقعت في الفخ. شكرته لضيافته قبل أن تقفز على ظهر جوادها ثم تنطلق بعيداً.

حثت الحيوان على الأبتعاد أكثر فأكثر وكأنها بذلك تتخلص من الغضب

الذي يلازمها كلما كان ريناتو في الجوار. إنها تسمعه خلفها الآن، يعدو بسرعة ليدركها، وهو يصرخ.

لم تستطع أن تفهم كلماته، ولم تبالِ بتلبد السماء وتغيّر لونها. فاجأها صوت الرعد، فانتفض جوادها لكنه ما لبث أن انتظم في مشيته، وعندما حاولت حثه على السرعة كان الأوان قد فات لأن ريناتو أصبح بجانبها وصرخ بها: «تابعي السير إلى المعبد، إنه أقرب من المزرعة».

وقبل أن تجيب، دوى الرعد مرة أخرى وانفتحت أبواب السماء، فشهقت هيذر. لم يكن المطر الذي تعرفه في انكلتر بل طوفاناً اصطدم بها دفعة واحدة وبللها من رأسها حتى قدميها.

صرخ بها ريناتو: «اتبعيني!».

لم يعد بإمكانها أن ترى المعبد وسط السيل المنهمر، واستطاعت بجهد اللحاق بريناتو. وفجأة، لاح المعبد من خلال البرق ولم يكن مشرقاً كما رأته في السابق، بل بدا داكناً مثيراً للرعب.

وصاح ريناتو وهو يشير إلى مكان بيده.

ـ هناك سقف للاحتماء من المطر.

لكن الفسحة لا تتسع إلا للجوادين. وهكذا وضعا الجوادين في الداخل. ليتعرضا هما لقسوة عناصر الطبيعة.

صاح متذمراً: «تباً! ظننت أن أمامنا يوماً آخر على الأقل».

أما هيذر فبعد أن استردت أنفاسها من العدو، شعرت بالانتعاش يغمرها وهي تصغي إلى دوي الرعد فيما تبلل زخات المطر جسدها.

حدق ريناتو بها ملياً وكأنها ليست المرأة التي يعرفها، بل امرأة جديدة تجد متعة كبرى في تحدي عناصر الطبيعة. وبادلته النظرات ضاحكة بتحد.

سرت لمعرفتها أنه يفقد السيطرة على نفسه وأنه يريدها رغم ادعاءاته. كانا يضحكان معاً فيما بلل المطر قميصيهما وفقدا الإحساس بالوجود. أمتعها الشعور بوجوده قربها في مواجهة الطبيعة الشرسة. هذا ما كانت تتوق إليه وتتجنبه في آن واحد، لأنها، مثله، تحب أن تعيش بشروطها الخاصة.

ولكن ما يحدث بينهما الآن هو ليست علاقة بشروط أي منهما... فالحاجة، الشوق، الفضول، والخصومة... تتفاعل لتوليد جاذبية لا تتبع سوى قانونها. خفق قلبها بعنف فشعر ريناتو به. فقال هامساً: «هل استطاع لورنزو أن يجعلك تشعرين على هذا النحو؟ ألا تستطيعين أن تشعري بالفرق؟».

فصرخت محتجة: «ليس هناك فرق، فكلاكما من نوع واحد، أنانيان لا تكترثان بمشاعر الآخرين، تظنان أن النساء مخلوقات صالحة للاستغلال».

وتساءلت عما يجعلها تصمد أمام رجل يتمتع بهذا التأثير القوي على حواسها، لكن غريزتها الأنثوية حذّرتها من السماح لريناتو بالنيل منها بسهولة. إنها لا تدري ماذا يحمل لها المستقبل، وإذا لم تصمد حالياً ستندم طيلة حياتها.

لكن ريناتو الذي قرأ أفكارها صوب نظراته عليها فبات من الصعب عليها أن تصمد أمامه. وإذا بالمطر يتوقف فجأة كما ابتدأ ليبقى منه رذاذ خفيف، فابتعدت هاربة. وسمعته يقول:

ـ فيك ما يجعلني مجنوناً، ولدي ما يستفز طبعك الهادىء ولا تظهرينه لأحد سواي. لقد تشاجرنا منذ اللحظة التي التقينا فيها، وربما سنظل نتشاجر حتى اللحظات الأخيرة في حياتنا. ولكننا سنمضي حياتنا معاً، لأنني لن أتركك تتزوجين رجلاً آخر.

حدّقت في وجهه وقد بان التمرد عليها فاعتراها شعور سبق أن عرفته على الزورق البخاري حين أخذت تحثه على الابتعاد عن السفينة وكاد أن يكلفها الأمر حياتها حينذاك واليوم قد يقرر مصير بقية حياتها.

قال ريناتو: «هل تفهمين؟ أجيبيني».

بادلته ابتسامة بطيئة مثيرة جعلته يقترب منها قائلاً: «هل تتعمدين تعذيبي هيذر؟».

ـ ما رأيك؟

طرحت السؤال بصوت خافت فأجاب مزمجراً: «أظن أنني لن أدعك

تعذبيني أكثر من ذلك».

فضحكت قائلة: «وكيف تمنعني؟».

ـ لا تتحديني يا هيذر، فستخسرين.

ـ سبق وربحت.

سألها بخشونة: «أخبريني بأنك لم تحبيه حباً حقيقياً».

ـ لو فعلت، فهذا من حقي تماماً. لأنني كنت له وليس لك.

ـ قولي لي إنك لم تفعلي.

ـ هذا لا يعنيك، فأنت لا ولن تملكني أبداً.

تراجع عنها. كان يرتجف وكأنه ركض أشواطاً وقال: «بل أملكك وستبقين ملكاً لي على الدوام».

وسكت ربما في انتظار جوابها لكنها ردّت عليه بالصمت. وببطء، همدت النظرة العاصفة في عينيه، مخلّفة الكآبة، وقال: «لقد توقّف المطر. علينا أن نذهب قبل أن يعاود الهطول».

في الڤيلا، استبدل ملابسه المبللة فقط. توجهت هيذر إلى غرفتها لتغير ملابسها، وعندما خرجت كان ريناتو قد رحل.

أخبرتها مدبرة المنزل أنه لم يستطع البقاء وأنه طلب منها أن تودّعها نيابة عنه، فأومأت هيذر: «لم أكن أظنه سيبقى».

تناولت ذلك المساء العشاء وحدها فأخذت تنتقي الطعام بدقة وعناية من دون شهية مما حمل جوكاستا على تعنيف زوجها، لاعتقادها أنه لم يطه الطعام جيداً.

تأخرت في الخلود إلى النوم. وعندما أطل القمر، أخذت تجول في الحديقة، وهي تتبين طريقها بسهولة في الممرات الفضية. كانت عريشة الورود تتألق في الضوء الخافت دلالة على حب أبدي.

ظنت أنها ستعيش قصة مشابهة في صقلية ملؤها مشاعر رقيقة تفتقر إليها في موطنها الإنكليزي البارد.

في بلد تسطع فيه الشمس ويهاجمه مطر عنيف، وجدت المشاعر

المحمومة البدائية التي يستجيب لها الناس هنا فقط، واتضح لها أنها في داخلها، واحدة منهم.

حسن جداً. إذا أرادت أن تكون صقلية، فعليها أن تواجه حدّة جاذبيتهم الفتاكة.

وعاودتها ذكرى ريناتو. كيف تحداهاوكيف أخذ قلبها يقفز بين أضلعها. ولكنه يريد امتلاكها وما من امرأة مستقلة ترضى بذلك، وهكذا انقسم المنطق والإحساس لديها.

* * *

ذهبت عصر اليوم التالي إلى البيت الكبير، فوجدت بابتيستا قد استيقظت من قيلولتها، وبدت منتعشة. شربتا الشاي معاً على «الشرفة» عند المغيب. كان المطر قد غسل الطبيعة فازدادت المناظر نضارة. وبما أن فصل الصيف الحار قد ولّى، بات الطقس بارداً ومنعشاً. وراحت هيذر تزولاً عند رغبة بابتيستا، تمضي أوقاتها في الڤيلا.

ـ زارني الكاهن، عارضاً عليّ مشاركته لعبة الشطرنج، فأكدت له أنني بارعة فيها، فخرج مسروراً.

ضحكت بابتيستا وقالت: «الأب تورينو عزيز علي، لكنه أسوأ لاعب شطرنج في العالم. عليك أن تدعيه يربح أحياناً. إذاً، لقد تقبلّوك بسرعة، وهذا رائع».

ـ آه... الكل ينظر إليّ من أعلى إلى أسفل متسائلاً عما إذا كنت (سأنجح). يبدو أنهم يثقون بي. إنه مكان مبهج ولا عجب في أنك تحبينه.

وبعد لحظة أضافت بلهجة مبطنة:

ـ أنا حقاً لا أريد أن أغادره.

ـ كنت واثقة من عدم رغبتك في مغادرته.

ـ لكن الأمر ليس سهلاً.

وارتشفت هيذر الشاي مفكّرة بصوت عال:

ـ كم رجلاً رفضت قبل أن توافقي أخيراً؟

فأجابت بابتيستا: «خمسة أو ستة فأبواي المسكينان كانا متخوفين من عنادي لكنهما لم ييأسا».

لمحت هيذر بطرف عينها ظلاً خلف الستائر، ثم بدا ريناتو. كانت واثقة من أن بابتيستا لاحظت وجوده، لكنها تظاهرت بالعكس. أما هو فالتزم الصمت واكتفى بالاستماع بانتباه.

وتابعت بابتستا:

- يجب ألاّ يكون الرجل وحده مناسباً، بل يجب توافر الظروف أيضاً. وهذه إحدى فوائد استعمال وسيط زواج. يمكنكما أولاً أن تناقشا القرارات الهامة، وبالتالي يصبح الخلاف أقل حدة.

- آه، لا أدري.

تجاهلتا وجود ريناتو، رغم أنه سكب لنفسه كوب شاي واتخذ مقعداً خلفهما. وتابعت هيذر تقول: «بالنسبة إلى بعض الناس، هناك دوماً أشياء يختلفون عليها لأنهم مزعجون».

- أنا أوافقك تماماً على هذا. فسمسار الزواج الجيد يأخذ ذلك في الحسبان، فبعض الرجال أقل انسجاماً مع النساء وذلك لأنهم... لا أدري كيف أصفهم؟

هبّت هيذر لمساعدتها: «معتدون بأنفسهم».

فهتفت بابتيستا مسرورة: «آه، كم أحب تعابيرك الإنكليزية، فهي ممتازة».

فقالت هيذر: «هناك مشكلة أخرى ينبغي الانتهاء منها، وهي (الوفاء). من أتحدّث باسمها لا تحب أن ترى نفسها تقف في الصف خلف إلينا ومينيتا و...».

وزمجر صوت رجل من الخلف: «لم أسمع بهن قط».

وعلّقت بابتيستا مداعبة: «أظنه سيقرر أن ينسى أنه عرفهن يوماً».

فقالت هيذر: «جيد. فمن أتحدث باسمها تتوقع أن تبقى الأمور بهذا الشكل. هل تكلم أحد؟».

فزمجر الصوت مرة أخرى يتحدث باللهجة الصقلية.

فقالت بابتيستا غير مبالية: «يبدو أن أحدهم إنضمّ إلينا. هناك مثل في صقلية يقول: «لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوا بكم».

فقالت هيذر بجد: «وجهة النظر هذه موافق عليها. الوفاء من الطرفين».

فقالت بابتيستا: «رائع. هناك أمور أخرى ينبغي مناقشتها مقدماً، أين سيسكنان مثلاً؟ رفضت خطيبين لأن ڤيلا «بيلا روزاريا» لم تعجبهما ولم يقبلا بقضاء أي وقت هناك. كل ما كنت أريده قضاء أسابيع عدة في الصيف لكنهما لم يوافقا».

فردّت هيذر: «قضاء عدة أسابيع في الصيف أمر رائع».

- وبقية الوقت هنا لأنه يقوم بأعمال كثيرة من هذا البيت.

فأيّدت هيذر ذلك معلنة: «من الضروري طبعاً البقاء حيث أعماله. لكنك أحياناً كنت تتسللين إلى الڤيلا وحدك».

فأجابت بابتيستا: «هذا صحيح، كما أنني واثقة من أنك ستفعلين ذلك. لكني أشك في أن تكوني وحيدة لأنه يحب الڤيلا أيضاً، وقد يثقل عليك بصحبته أكثر مما ترغبين».

- لا مانع عندي، فهو في أحسن حالاته في الڤيلا.

- آه. لقد تنبّهت لذلك إذن؟

- إنها صفة إنسانية تقريباً. ومن الجميل أن تكون هناك صفات مشتركة بيننا.

فقالت بابتيستا: «إذن، تقرر الأمر. يبقى استدعاء المحامي وترتيب التفاصيل القانونية. أما بالنسبة إلى المهر...».

أشارت هيذر: «العروس تقدم «بيلا روزاريا» هدية. وهي مزرعة جميلة جداً».

أيّدتها بابتيستا: «إنها هدية ممتازة وهي ستبقى ملكها...».

فاحتجت هيذر: «لكنني ظننت أنها تريد أن تعيدها إلى أسرة مارتيلي».

فقالت بابتيستا: «بعد الزواج ستكون هي فرداً من أسرة مارتيلي. كما أن وضع المرأة في صقلية أقوى إذا كان لديها بعض الممتلكات باسمها. عليك أن تنصحي من تتكلمين باسمها بالموافقة».

فأومأت هيذر: «سأفعل. ولكنها في الواقع، تعلم تماماً كم تدين لحكمتك في الوصول إلى حلٍّ ناجح. هل نسينا شيئاً؟».

ـ لا أظن ذلك.

فأكدت هيذر بتصميم مفاجىء: «في هذه الحالة، يمكنك أن تطلعي من تمثلينه على أنّ من أتكلم باسمها وافقت بكل سرور».

ونهضت. مدت بابتيستا يدها فساعدتها هيذر على الوقوف، ثم دخلت المرأتان المنزل ببطء، تاركتين ريناتو وحده يحدّق في البحر بكآبة. لم تتفضل أي منهما بنظرة عليه.

* * *

١٠ ـ زواج مدبّر

لعرسها الثاني في كنيسة باليرمو، اختارت ثوباً حريرياً أكثر بساطة من الأول، لونه العاجي يناسب بشرتها التي لوحتها الشمس فأبرزت تألقها أكثر من اللون الأبيض. استأجرته هذه المرة من متجر في باليرمو. أكدت لريناتو وبابتيستا مزهوة: «لم يكلفني قرشاً واحداً. قدمت إليهم ثوب الزفاف القديم هدية، فسّرهم إعارتي الثوب مجاناً».

ـ يا لك من امرأة عملية. ألم أخبرك؟

وكانت الجملة الأخيرة موجهة إلى ريناتو الذي رد مبتسماً:

ـ نعم أخبرتني. لعلك مصيبة في ذلك.

ـ مصيبة؟

ونقلت هيذر نظراتها بينهما، فقال ريناتو موضحاً: «أمي تظن أن عليك الالتحاق فوراً بدنيا الأعمال».

وقالت بابتيسا: «علي أن أتقاعد قريباً ويجب أن تأخذي مكاني، وإلا لن يكون هناك صوت نسائي في مجلس الإدارة وهذه كارثة».

ـ وهل أنت عضو في مجلس الإدارة؟

فقال ريناتو ساخراً: «ستستمتعين باجتماعاتنا. في البدء، تطلعنا أمي على ما تريده، ثم يبدأ الاجتماع، وتقدم الاقتراح للتصويت فندلي جميعنا بأصواتنا حسب تعليماتها».

فقالت هيذر بصراحة: «هذا طبيعي».

www.liromancia.com

ـ لا عجب في أن أمي تريدك أن تأخذي مكانها. أنت مستبدة مثلها.

ـ آخذ مكانها؟

فقالت بابتيستا: «لا يمكنني الاستمرار إلى الأبد يا عزيزتي. أنت لديك عقل وجمال وحس عملي. باختصار، أنت فتاة مناسبة للغاية. كنت مصممة في الواقع، على كسبك في صفي».

كانت هيذر تعلم أن بابتيستا تحبها، لذلك ارتأت أن تجعلها سيدة أعمال ذات مكانة اجتماعية وليس مجرد عروس. كانت تفضل عرساً هادئاً، ولكن بابتيستا أصرت على وجوب دعوة كل ضيف من العرس السابق لئلا تجرح كرامتهم.

وهكذا سارت الترتيبات بالمستوى نفسه. في المطبخ، أخذ الطهاة يعملون ليلاً نهاراً لكي يضاهوا جهودهم السابقة. حتى كعكة الزفاف، أضيف اليها طابق آخر.

وحدها العروس بقيت على حالها، وفيما حل برناردو شاهداً، ذهبت هيذر عشية الزفاف، إلى مطار باليرمو لاستقبال أنجي وصيفة العروس الدائمة. تناولتا الطعام معاً في المطعم، ثم تسللتا إلى المنزل الكبير خفية عن برناردو.

وفيما كانت أنجي تستعد للنوم في غرفتهما القديمة، سألتها: «ألم يشتبه في شيء؟».

ـ مطلقاً، لم يذكر أحد خبر قدومك. سيفاجأ برناردو عندما يراك بجانبي غداً في الكنيسة. أنت لم تتغيري، أليس كذلك؟

ـ مطلقاً. وهو؟

فقالت هيذر: «إنه تعيس مثلك ثقي بي، فسأتدبر هذا الأمر».

أجفلت أنجي معلقة: «يا إلهي، تبدين مثل بابتيستا».

فقالت هيذر بمرح: «هذا ما يريدونني أن أكون عليه».

ـ المعذرة؟ لم أفهم.

ـ زواجي هو زواج مصلحة، ومناسب للجميع.

ـ وهل هذا سبب زواجك من ريناتو؟ لأنه مناسب؟

فقالت هيذر بشيء من الحزم: «بالضبط».

فابتسمت أنجي قائلة: «أنت تخدعين نفسك».

جاء الصباح وتفرّقت الأسرة. رافقها إنريكو ابن عم العريس إلى الكنيسة التي وصلاها في غضون دقائق. هذه المرة، لم يداعب النسيم شعرها ولم تسمع همس المدعوين، كان همها التأكد من أن عريسها حاضر يترقب إنهاء الصفقة. إنه زواج مناسب بين شخصين متكافئين.

توجّهت إلى مذبح الكنيسة على وقع الموسيقى فطالعها وجه ريناتو. وشعرت بقشعريرة تسري في أوصالها، إذ لم يكن متماسكاً كرجل أعمال بل بدا شاحباً مذهولاً، تماماً كما بدا عليه ذلك اليوم، عندما هبطت السلم لكي يقودها إلى الكنيسة.

أرادت أن تنظر إلى برناردو لترى ردّة فعله إزاء رؤية أنجي، لكن منظر ريناتو الذي راح يحدق فيها بنظرة غامضة أنساها الدنيا. وتلاشت الكنيسة واختفى المدعوون. لم يبق غير ريناتو الذي يوشك أن يصبح جزءاً منها حتى آخر العمر.

عندما باشر الكاهن بالمراسم حبس جميع المدعوين أنفاسهم، وما لبثوا أن تنفسوا الصعداء عندما استدار العروسان واجتازا بهو الكنيسة نحو أشعة الشمس. لقد سويت المسألة برضى الطرفين.

في حفل الاستقبال في «البيت الكبير»، تمكّنت هيذر من قطع كعكة الزفاف. وعندما افتتحا معاً حلبة الرقص دوى التصفيق.

لمحت هيذر بطرف عينها أنجي وبرناردو، بدا عليهما الانسجام، لكن وجهيهما كانا جامدين يثيران الشفقة فرثت لحالهما.

واستفهم ريناتو: «هل ظننت حقاً أن إحضارها قد يأتي بنتيجة؟».

فقالت بكآبة: «أرجو ذلك، فهما يحبان بعضهما البعض كثيراً».

ـ لهذا لا يمكنهما التفكير بتعقّل مثلنا.

فابتسمت: «أظن أننا محظوظين».

بادلها الابتسام علامة الموافقة.

تلك الابتسامة نبهتها إلى يده المشدودة بحزم على يدها. لقد سبق وجاهدت لإنكار تأثيره عليها. إنما لم تستطع أن تنكر ذلك ضمناً وأخذت خفقات قلبها تتسارع.

وأخيراً، بدأ المدعوون بمغادرة المكان، ما عدا الذين سيمضون الليلة هنا. وبات العروسان حرّين في التسلل إلى الغرفة الرئيسية حيث السرير الضخم ذي الأعمدة الذي احتله ريناتو سنوات طويلة. اليوم، سيصبح سريرها هي أيضاً.

في الغرفة مصباح واحد قرب السرير يرمي بظلاله الشاحبة على الغطاء الأحمر وجدران الغرفة مسبغاً عليها جواً من الغموض. رأت نفسها في المرآة الطويلة، شبحاً باهتاً صامتاً. هل تنتمي حقاً إلى هذا المكان؟؟

وسط هذا الصمت المطبق، تبيّنت طيف ريناتو أمام الباب مباشرة. لم تسمعه يدخل. منذ متى وهو ينظر إليها بذلك التعبير الغريب المحيّر؟.

في هذا الضوء الخافت، بدا أطول وأكثر مهابة. ولكنها لمحت تردداً في مشيته وسلوكه، فأدركت أنه هو أيضاً غير واثق من صحّة هذه الخطوة التي أقدما عليها.

كانت لا تزال في ثوبها الأبيض ولكنه نزع عنها تاج اللؤلؤ والنقاب، فانسدل شعرها على كتفيها. بسرعة وضعت الكأس من يدها بسبب ارتجافها.

فسألها: «هل أنت بخير؟ لا بد أنك شعرت بالتوتر بسبب تفحص المدعوين لك وترقبهم لخطواتك».

ـ وماذا عنك أيضاً؟ في الواقع ربما كانوا يتساءلون عنك وعما تشعر به وقد تزوجت المرأة التي رفضها أخوك..

شدها من شعرها فصرخت بتأوه.

ـ آسف.

بادرها بالاعتذار مرخياً شعرها وأكمل تفسيره:

ـ لم أقصد أن أفعل هذا، اتفقنا على نسيان ذلك... وكأنه لم يحدث

قط. أتسمعين!!

فكرت في صحة اقتراحه. إنها الطريقة الوحيدة التي ستمكنها من العيش بسلام وكأن الأمر لم يحدث.

عندما تحدّث ريناتو مجدداً، كان صوته مرحاً:

ـ هل رأيت إنريكو وغيسيب وهما يتنافسان على كسب ودّ أمي اليوم؟

ـ نعم. وتملّك المسكين أنريكو الغضب حين اهتمت بغيسيب. لو لم تهتم به لاحقاً.. لا أجرؤ على التفكير بما كان يمكن أن يحصل.

فقال بمرح: «ما كانت أمي لتسمح بذلك. عملت جاهدة لإتمام زفافنا، وهو زفاف عقلاني يناسب أسرتنا والمجتمع. هذا ما يفعله الناس العاقلون».

فقالت: «نعم، إنها صفقة عملية ممتازة لكلينا».

ـ أنا مسرور لاعتقادك.

ونظرت في عينيه متعجبة لعبوسه، فسألها فجأة: «ألم تغيّري رأيك؟».

ـ لا.

ـ آه، نعم. أنت امرأة تفي بوعودها على ما أتذكر.

وراح ينظر في وجهها متأملاً وكأنه يريد أن يتكهن بما لم تخبره به.

شعرت بأنه لم يستطع أن يجد الجواب الشافي لأن ذلك العبوس في نظراته لم يغب. جلس الى جانبها فشعرت بأمواج من السعادة تتدفق في داخلها، ولم تعد تشعر ببرودة الليل التي تلفحها. لطالما أحست أن مكانها الطبيعي هو هنا إلى جانبه...

في البدء، كان يكبح مشاعره الدفينة، لكنه ما لبث أن استرخى فبدا عليه الارتياح.

حاولت ألاّ تفكر في أيّ امرأة أخرى عرفها، وإلا قتلتها الغيرة. أرادته لها وحدها، الآن وإلى الأبد.

وبعدها، غابت في عالم جديد فلم تعد تشعر إلا به...

لقد سبق أن اجتمعا معاً لكنها في هذه المرة اختبرت شعوراً جديداً..

شعرت بالسرور لأنه كان متوتراً، فلقد اكتشفت أن لها تأثيراً عليه. أطفأ مصباح السرير فغرقا في الظلام قبل أن يتسرب ضوء القمر الشاحب إليهما من خلال الستائر.

وفي العتمة استطاعت أن ترى بريق عينيه، فهمست باسمة: «ريناتو...».

لقد أصبحت ملكه. لكنها، لطالما كانت دوماً ملكه، وإذا ما شكّت في ذلك في السابق فقد أصبحت الآن واثقة تماماً.

ظل ريناتو ممسكاً بها وكأنه يخاف عليها من الهروب. لم تشأ أن تهرب منه، بل ودّت البقاء في معه إلى الأبد.

استغرقت بسهولة في نوم عذب، وأفاقت بعد ساعة لتراه ينظر إليها مبتسماً. نامت من جديد وفي خيالها صورة لعينين تتأملانها ولا تسمحان لها بالذهاب.

* * *

كان موسم الخريف لا يسمح بقضاء شهر عسل على المركب. وهكذا، في الصباح التالي رافقتهما أنجي إلى المطار خائبة إذ لم يتراجع برناردو عن موقفه السابق. استقلت الطائرة إلى انكلترا، فيما ركبا الطائرة المتوجهة إلى روما، ومن ثم إلى باريس. كانت في الواقع رحلة عمل، حيث قاما بزيارات إلى أهم زبائنهم.

لكن هيذر استمتعت لأنها شريكة في العمل. وفي باريس جالا على أهم دور الأزياء، واشترت ملابس جديدة لترتديها في السهرات. كانت تتقن الفرنسية آملة أن تعزز مركزها في غواسوايز.

قال ريناتو ممازحاً عندما عادا إلى جناحهما في فندق «حياة ريجنسي»:

- لقد بدأت الشكوك تساورني لكثرة ما يتغزّل زبائني بسيدتي الجميلة.

السيدة أنيقة للغاية... رائعة للغاية.

- أحاول فقط أن أجعلك تفخر بي.

- إممم...

منذ ليلة الزفاف انزلقت بسهولة في بحر المشاعر الحميمة التي يثيرها فيها، وهكذا وجدت نفسها تريده طوال الوقت، في البداية أربكتها لهفتها إليه ولكنها سرعان ما تقبّلت الأمر. وفي كل يوم كانت تتعلم شيئاً جديداً عن الحب.

كانت تعلم أنها تسعده بقدر ما يسعدها، لكنه نادراً يتحدث عن مشاعره ويقول كلمة تعبر عما يدور في ذهنه. كان يحقق لها رغباتها بمجرد أن تطلبها منه. ذات مرة، وفيما كانت تتأمل قطعة مجوهرات أهداها إياها، باغتها بسؤاله: «الا تظنيني أبالغ في ذلك؟».

فردت ممازحة: «أبداً، فلقد عرضت عليّ ذات مرة أضعاف هذه القيمة لأخرج معك، ألا تذكر؟».

لكنها سرعان ما ندمت على كلامها حين رأت تقطيبة حاجبيه. لم يتنفس عن مشاعره بل بقي هادئاً ولكنها كانت تعرف أنه مستاء فبررت تصرفها قائلة: «كنت أمزح فقط».

أشرق وجهه بسرعة، وقال: «طبعاً. ولكنني مزاجي بعض الشيء. أين سنأكل؟».

أقفل ريناتو الموضوع، رغم جهودها لتقويم الأمور. لم تتزين بتلك الحلية قط لأنها كلما حاولت ذلك، كان يتقد مظهرها، حتى تخلت عن الفكرة.

وبعد عودتهما إلى صقلية، أخبرها ذات يوم أن لورنزو سيسافر قريباً إلى نيويورك. فعلقت على الفور: «كنت سأغضب لو لم تدعني لأرافقك أنا أيضاً إلى نيويورك».

- أتحبين نيويورك؟

فبادرته قائلة: «تعجبني عندما يتحول كلامك إلى تحقيق. تجعلني أرتبك من دون مبرر لذلك».

- أنت تستمتعين بإغضابي، أليس كذلك؟

- نعم، هذه إحدى هواياتي المفضّلة.

- استمري في النظر إلي بإغراء لأن ذلك يمنحني إحساساً بالرضا، فالجهود التي بذلتها في اصطيادك لم تذهب سدى.

- اصطيادي؟ أنا لست سمكة.

- ولكنك مثّلت تحدياً لي.

- نعم، أعرف بعض السبل الملتوية التي استعملتها. كان يفترض بك أن تقنع مدير متجر غوسوايز بإعادتي إلى برنامج التدريب لكنك لم تحرّك ساكناً.

أخبرها صمته بحقيقة كلامها، فسألته وهي تسوي جلستها: «هل صحيح أنك أوكلت محامياً لمنعهم من إعادتي إلى العمل؟».

- لن أعلق على ذلك.

فردّت: «لست بحاجة إلى ذلك».

همّ بالكلام وإذا بها تقذفه بوسادة...

حاول أن يفسر لها الأمر ولكنها خلّصت نفسها منه، فقال بخشونة: «ظننت أنني إذا أغضبتك، فستتزوجينني لكي تروضيني عملاً بنصيحة أمي».

ركلته بقدمها صارخة في وجهه: «آه، كفى... لقد ركلتك هذه المرة بقدمي الحافية فقط».

استطاعت أن تتحرر منه، لكنه لحق بها وسمّرها فنظرت إلى وجهه بغضب: «أحذرك يا ريناتو لأن غضبي يتفاقم».

- أعرف هذا، وأنا راضٍ تماماً بالنتيجة.

- دعني.

- ليس قبل أن ننهي ما بدأنا به.

وبعد ذلك لم يعد هناك مكان للكلام... للأفكار أو... بل

للأحاسيس.

مع ريناتو، وجدت هيذر البهجة، ولكن ليس السعادة والتعاسة. كيف يمكن لأي عروس أن تكون تعيسة برفقة زوج يمنحها اهتمامه ويأخذها إلى عوالم جديدة من الأحاسيس لم تحلم بها من قبل؟ ولكن انعدام التعاسة لا يعني وجود السعادة. لقد أدركت أنه يحاول إلهاءها لتجنب مواضيع معينة. وبعد أسبوع وضع في يدها تذكرتي سفر إلى نيويورك، فشهقت مستفسرة:

- شهر عسل ثاني؟ لكننا بالكاد أنهينا الأول.

فهز كتفيه: «لدي عمل في نيويورك. أما إذا كنت لا ترغبين في السفر...».

ومدّ يده لاسترجاع التذاكر فتشبثت بهما وهي تتراجع ضاحكة.

بقيا في نيويورك مدة أسبوع. ورغم أنه قام بزيارة خاطفة إلى زبون، لم يبد لهيذر قط أنها زيارة عمل، وتساءلت عما إذا جاء إلى هنا لإرضائها فقط؟ كانت هيذر تعيش حياة مزدوجة مع رجل يدللها في الظلام لكنه لا يتلفّظ مطلقاً بكلمات الحب والحنان في النهار. كما أن تصرفاته اللطيفة لا تحثها على مفاتحته بشعورها. كانت تشعر أحياناً كأنها تعيش مع رجلين.

عندما عادا إلى صقلية، انشغلت بإدارة فيللا «بيلا روزاريا». ومن باب الحكمة سلّمت مقاليد الأمور إلى «لويجي»، لكنها، وامتثالاً لنصيحته، قامت بزيارة المستأجرين، وناقشت مشاكلهم ثم أعطت تعليماتها في هذا الخصوص. رفض ريناتو قبض الإيرادات وأصر على إعطائها مصروفاً بصفتها زوجته. أرادت أن ترفض لكنها خافت من أن تجرحه، لاحقاً أدركت أنها قامت بالخيار المناسب.

بسبب تحفّظه الدائم، لم تستطع أن تصارحه بحبها له الذي راح ينمو مع الوقت لكنها لم تدرك قوته إلا بعد أن اضطر للتغيّب أسبوعاً بكامله. لم تظن أنه يمكن افتقاد شخص ما بهذه القوة. ولم تكن حواسها فقط هي التي اشتاقت إلى ريناتو بل قلبها تعطّش إليه أيضاً. كانت المرة الأولى التي يفترقان فيها منذ

زواجهما ووجدت صعوبة في تقبّل الأمر.

لم يكن حبها له مشابهاً لما أحسّت به تجاه لورنزو. بدا حبها الأول صبيانياً، مجرد افتتان بسيط. أما حبها لريناتو فعنيف، جارف، يكتسح كيانها كمدّ جارف تعجز عن مقاومته.

كانت تتحين اللحظة المناسبة للبوح بمشاعرها الدفينة علّها تسمعه يعلن مبادلتها الحب. لكن حديثه كان يقتصر دوماً على الصفقات التي أنجزها.

* * *

١١ ـ الخيانة القاتلة

سبق لريناتو أن وعد هيذر بمركز في الشركة وذلك احتراماً لرغبة والدته، وللنصوص التي قام عليها الزواج.

وذات يوم عادت من السوق فوجدته ينظر إليها مداعباً:

ـ ما رأيك بالقيام برحلة عمل؟ أريد إرسال أحدهم لينهي بعض المعاملات في اسكوتلندا.

ـ أليست تلك منطقة لورنزو؟ كما أنه موجود حالياً في انكلترا.

فأجاب بسرعة: «إنه يعمل على حل مشكلة هناك، لذا اضطر إلى تمديد اقامته، فاستلمت عنه اسكوتلندا».

كانت توافة لاقتناص هذه الفرصة رغم إدراكها أنها ستضطر إلى الابتعاد عنه. ولم يبد على ريناتو الحزن لرحيلها فتقبلت الموضوع.

وفي اليوم التالي، استقلت الطائرة المتوجهة إلى ادنبره. حجزت غرفة في فندق فخم افتتح مؤخراً في شارع «برنيس»، وأمضت الأيام القليلة التالية في بيع منتجات مارتيلي في كل أنحاء المدينة الفخمة، بما في ذلك الفندق الذي تقيم فيه. كانت رحلتها ناجحة جداً، باستثناء شعورها بالوحدة الذي لم يفارقها أبداً.

وفي آخر يوم، اتصلت بالبيت أملاً في سماع صوته، لكنه كان متغيباً طيلة النهار فخاب ظنها. تمالكت أعصابها ثم خرجت للعمل، مرغمة نفسها على التركيز. وتدفقت عليها طلبات جديدة من الزبائن فشعرت بلهفة لإطلاع ريناتو

www.elromancia.com

على الأمر.

عادت إلى الفندق وإذا بها تتجمد لرؤية ريناتو ومدير الفندق يجلسان معاً في البهو. صعقت لرؤية حلمها بلقائه يتحقق، ورأته ينهض لتحيتها. أثنى مدير الفندق عليها قائلاً لزوجها:

ـ زوجتك هي (مارتيلي) حقيقية يا ريناتو، إنها تعقد صفقات شائكة.

فقال ريناتو موافقاً: «وليس هنا فقط، بل في كل أنحاء المدينة كما يبدو».

وبينما كان المدير يطلب الشراب، نظر ريناتو إلى وجهها الغاضب، وقال: «أملت أن أراك أكثر سروراً برؤيتي».

فتمتمت: «لا أحب أن يراقب أحد عملي من وراء ظهري».

بدا عليه الارتباك لحظة ثم تمالك نفسه: «ليس الأمر هكذا بالضبط...».

فقالت متنهدة: «بل هو كذلك. أنا لا ألومك ولكن دعنا من الموضوع».

انتهى النقاش عند هذا الحد. وفي المساء، دعاهما المدير إلى العشاء. وتلك الليلة في جناحهما أظهرت له دفتر الطلبات فتلقّت منه إطراءاً صادقاً.

حاولت أن تقرأ ما يدور في ذهنه، لكنه لم يدعها تفعل ذلك، بل قال راضياً:

ـ دعيني أعبر لك عن سروري.

رضخت له مستجيبة لنداء السعادة التي تحس بها وهي معه.

بقيا يومين آخرين إلى حين انتهاء معاملاتها، ومدها ببعض الاقتراحات من دون أن يتدخل. وفي آخر ليلة لهما في ادنبره، احتفلا بتناول العشاء في غرفة نومهما كأي زوجين محبين. وسألها ريناتو: «لا أظنك تضايقت حقاً لحضوري، أليس كذلك؟».

ـ ظننتك مرتبطاً بعمل هام جئت لأجله.

ـ وهل هناك أهم منك حالياً؟

فعلقت ساخرة: «آه، نعم، لعلك ظننت أني أبدد المال يميناً وشمالاً».

فذكّرها بمرح: «وهل نسيت أنني عرفتك بائعة خبيرة».

لكن دفاعه لم يكن مقنعاً، لذا حثته على مصارحتها:

ـ ولكن ما الذي نعرفه حقاً عن بعضنا البعض؟ إننا متجانسان كزوجين ولكن خارج العلاقة الحميمة هل نعرف بعضنا تماماً؟

ـ هراء. أنت تعرفين الكثير عني. مراوغ، مخادع، مناور... لقد نسيت الكلمات الأخرى التي وصفتني بها انطلاقاً من معرفتك بي.

وبدا عليه الجدّية وهو يضيف: «الرجل والمرأة يجدان في الزواج حقيقتهما الكبرى».

فاحتجتْ بكآبة: «نعم، ولكنها ليست حقيقتهما الوحيدة».

ـ وهل تظنين أن الحقائق الأخرى مهمة؟

ـ ربما ليس كثيراً الآن. ولكن فيما بعد... مع مرور السنين...

ـ دعي السنين تهتم... بنفسها.

أومأت نحوه بسخرية معلقة: «أهذا هو ردك؟؟ أنت من يخطط مسبقاً للمستقبل».

سكت لحظة، وأخيراً سألها بصوت غريب: «وهل تشيرين إلى لورنزو؟ لم أشأ فتح الموضوع نفسه ولكن ما دمت تريدين ذلك. حسناً أعترف بذلك. أنا أحاول أن أخطط كثيراً. زواجك منه غلطة، ولقد أدركت ذلك يوم قضينا نهارنا على المركب، لكن الوقت كان قد فات. ماذا أفعل؟ هل أغوي خطيبة أخي؟».

فردت بحزم: «كان عليك أن تحاول ولكن لا تثق بأنك كنت ستنجح».

فأجابها ساخراً: «وعلامَ استندت لضمان فشلي؟».

فكرت في المشاعر التي كادت تخونها عندما اقترب منها على سطح المركب، أو لحظة تفحصت معصمه لرؤية أثر الجرح فيه. لم يكن هذا الشعور محموماً حينذاك، بل مجرد تنبّه لبعضهما البعض.

وألحّ مطالباً بردها: «حسناً؟ لو نسيت مبادئي حينذاك، هل كنت ستجاريني؟».

- الأمر مختلف لأنني كنت أحب لورنزو.

فقال موافقاً: «نعم الحب يعقد الأمور، حتى ولو كان وهماً».

تمنت لو تذكره بكلماته عن الحب.

- كنت أؤمن بأشياء لم أعد أؤمن بها الآن.

كانت تتحرق لسؤاله عما إذا لا يزال مقتنعاً بقوله، فلا بدّ أن تقاربهما الحميم جعله يغير رأيه. لكن شجاعتها خانتها في آخر لحظة، وقالت بمرح: «أظننا لن نعرف الحقيقة قط».

- ربما أنت محقة. كنت أعي رغبتي الشديدة بك ولكنني بقيت بعيداً عنك. عندما فرّ لورنزو، سررت في سرّي، ولكنك كرهتني بعد ذلك. لم أستطع أن ألومك، ولكن بدا لي أنه من المستحيل التقرب منك.

- لو أن بابتيستا لم تقرر تزويجنا، هل كنت ستتركني أرحل؟

- لا. كنت أريدك لنفسي.

ولاحظت أنه قال يريدها، ولم يقل يحبها.

وتابع قائلاً: «ولكن عندما تحدثنا عن ذلك، غضبت أنت».

- أتعني... كنت أنت وراء الأمر؟

- كنت أعرف ما يدور في ذهنها. وكان بإمكاني ألاّ أشجعها على ذلك ولكنني سكت ولم أفعل.

- لكنك غضبت جداً لفكرة الزواج مني.

- لأنك سخرت مني، ماذا توقعت مني أن أقول بعد ذلك؟

حدّقت فيه وهمت بسؤاله عن سبب عدم عرضه الزواج عليها، لكنها لم تستطع أن تنطق بذلك لأن مشاعرها ستفضحها. كانت تشعر بأمان أكثر في كتمان مشاعرها عن رجل غامض.

لم يجازف ريناتو بدوره بطرح أسئلة حميمة عليها وتذكرت شيئاً آخر قاله عن أنها قادرة على الخيانة لكنها لا يمكن أن تخونه أبداً. إنما التزامه الصمت وإصراره على إبقاء قلبه موصداً في وجهها يصعب عليها الأمور.

قالت بمرح: «إذن، بقيت أمك رسولاً».

- بعد ما تعرضت له من أذى، فكرت أن التقرب غير المباشر أكثر حكمة.

وأرادت أن تصرخ في وجهه لتقول لها إنه لم يقدّم لها شيئاً يذكر.

* * *

كانت بابتيستا الشخص الذي تعتمد عليه في مساندتها، وبعد الزواج لم تتنازل عن دورها كوسيط.

وذات يوم، وفيما هما جالستان معاً في الفيلا تنظران إلى أنهار المطر في الخارج قالت: «لم تستطع امرأة قبلك أن تجعله يتوقف ويفكر، وترغمه على نسيان غطرسته وتعلّمه أن يحب ويثق مرة أخرى. وقفت في صفك لأنه كان بحاجة ماسة إليك. ولكن أتراني ظلمتك؟».

- لا، ماما. فنحن سعيدان جداً من جوانب كثيرة. وأحياناً أشعر أنه يريد التقرب مني ولكنه يتراجع دوماً. كيف يمكنني أن أخبره بأنني أحبه؟

- هل يجب أن يكون ذلك بالكلمات؟

- بالنسبة إليّ يجب ذلك.

- أظن أن شعوره نحوك قد استيقظ قبل (زواجك) الأول، نحن مدينون للورنزو.

- لورنزو؟.

وضحكت.

- لقد عمل ما يناسبه من دون تحمل العواقب. لو خضع للأمر الواقع، لكنتم جميعكم تعساء! أعتقد أنه سيصبح عاقلاً في المستقبل.

وغمزت بعينها، قبل أن تضيف:

- ولكن لا تخبريه بالأمر.

- لن أفعل. كما أنه لن يكون لورنزو إذا أصبح متعقلاً جداً. أما ريناتو العاقل، الجبار فهو لا يحبني لأنه لا يفهم الحب بل الحاجة والرغبة والتملك. إنه لا يعرف شيئاً عن القلب.

فقالت حماتها بحزم: «أنت مخطئة. فهو لم يكتشف بعد أنك تعنين له

أكثر من أي شيء آخر. سيتطلب الأمر وقتاً، وربما سنوات».

لم تضف هيذر شيئاً ولكنها أخذت تتساءل ضمناً إذا كان في إمكانها أن تمضي سنوات بانتظار ما قد لا يحدث أبداً. وكانت بابتيستا تراقبها، فأدركت أنها هي أيضاً تتساءل مثلها.

* * *

كاد الشتاء يمضي، وخف تساقط الأمطار، تاركاً التربة مشبعة حاضرة لاستقبال بذر الحبوب في الربيع. كانت الطبيعة تحمل علامات تجدد الحياة. فكرت هيذر في أنه ربيعها الأول هنا وأن الحصاد الذي سيجمع هذه السنة هو حصادها الأول أيضاً.

كانت تدير المزرعة جيداً بشهادة العاملين فيها، بمن فيهم لويجي الذي كان ينصاع لتعليماتها.

كانت الغلة ممتازة، ففتحت حساباً في المصرف مكّنها من مساعدة ريناتو عندما تعرض لضائقة في السيولة. لكن فرحتها لم تكتمل بسبب اصراره على إعادة المبلغ مع الفوائد تجنباً لأيّ مشاكل مع الضرائب، كما قال. كانت حجته منطقية تماماً، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات التي تبرر حزنها.

في تلك الفترة، نادراً ما كانت ترى لورنزو الذي راح يتغيب خارج البلاد بصفة شبه دائمة. زيارته التالية إلى انكلترا، صادفت مع سفر ريناتو لقضاء عشرة أيام في روما. وهذه المرة، لم يقترح ريناتو عليها أن ترافقه.

أمضت يومين في «بيلا روزاريا»، ثم عادت إلى منزل الأسرة لتجد أن بابتيستا تزور بعض الأصدقاء وستعود متأخرة. أفرغت حاجياتها في الغرفة، محاولة أن تتجاهل السأم والتململ اللذين يتملكانها. وعنّفت نفسها لجحودها فقد نالت كل شيء... كل شيء تريده تقريباً.

من خلال نافذتها، أمكنها أن ترى البحر والمرفأ. ها هي سفينة سانتا ماريا التي عرّضت حياتها للخطر ولم تعنِ بالخطر غرقها في البحر بل شعورها نحو شقيق خطيبها.

كانت بابتيستا محقة في ذلك، لأنها لم تعد تعتقد بأن العيش مع لورنزو

هو الهناء. كانت ستحن إلى رجل قادر على إشباع رغباتها.

وبدلاً من ذلك، تزوجت الرجل الذي أرادته، وربما أحبته منذ البداية. تنهدت وهي تدرك أن كلمة «ربما» سترافقها مدى الحياة.

رفضت أن تعترف حينها بأنها أحبت رجلاً غير قادر على الحب. لقد عاش ريناتو حياته وفقاً لشروطه فنال على الدوام مراده وهو حالياً يريدها، ولكنه لا يحبها. لقد أخبرت بابتيستا أنه لا يعرف شيئاً عن شجون القلب، ولكنها ما زالت تخشى أن تكون محقة في شكوكها. لذا لن تجرؤ على مفاتحته بمشاعرها.

سمعت طرقاً على بابها. كانت سارا الخادمة تعيد بعض الثياب بعد أن أنهت غسلها. في هذا الوقت، رن جرس الهاتف على المنضدة، فرفعت السماعة: «آلو، لورنزو؟».

فبدا عليه الاستغراب والانزعاج: «هيذر، هل أنت وحدك؟».

ـ لا، انتظر لحظة.

وأشارت إلى سارا لتخرج، قبل أن تضيف:

ـ لا بأس، أنا وحدي الآن.

ـ أريد أن أتحدث إليك... من دون علم ريناتو أرجوك.

ـ لورنزو، ما الأمر؟

ـ أريدك أن تأتي إلى لندن.

فهتفت: «ماذا؟».

ـ أنا بحاجة إليك. أرجوك، فالأمر هام. هناك أمور... أرجوك يا هيذر... أرجوك...

تدفقت الكلمات من فمه بيأس فمات الاحتجاج على شفتيها. وأخيراً قالت: «لا بأس. سآخذ أول طائرة. وإذا حالفني الحظ فسأكون عندك الليلة».

أخرجت جواز سفرها ووضعت أشياءها في حقيبة صغيرة، شاعرة بالراحة لغياب بابتيستا. وهكذا غادرت من دون أن تضطر للإجابة عن أسئلة

أحد.

بحثت عن سارا وقالت لها بلهجة عادية: «سأعود غداً، أو ربما بعد غد».

ثم خرجت بسرعة. لم تستطع أن تذكر وجهتها أو سبب سفرها.

* * *

عاد ريناتو إلى البيت قبل أسبوع من الموعد المقرر. وصل عصراً إلى المنزل، وكان مزاجه مرحاً متشوقاً لمفاجأة زوجته بعودته المبكرة، ولعل ذلك يساهم في التخفيف من التحفظ الذي يسيطر عليهما ويبقيهما بعيدين عن بعضهما البعض.

ـ حبيبتي.

ناداها وهو يدفع باب غرفتهما برجله.

ـ أين أنت؟

كانت الغرفة خالية، فهز كتفيه وهبط بسرعة إلى الطابق السفلي. لا بد أنها على الشرفة ولعلها تتحدث مع أمه، أو لعلها في المزرعة. لماذا ذهب أولاً إلى غرفة نومهما؟ وضحك: لأنه يعرف السبب.

ـ سارا، أين زوجتي؟

توقفت الخادمة عن السير وبدا عليها القلق.

ـ لا أدري يا سنيور. اتصل السنيور لورنزو بها الليلة الماضية وبعد ذلك غادرت البيت بسرعة قصوى.

ـ هل حددت وجهتها أو مكانها؟

ـ لا يا سيدي، قالت إنها عائدة اليوم أو ربما غداً.

ـ أين أمي؟

ـ مستلقية في غرفتها.

فتح باب غرفة أمه بهدوء لكنها كانت مستغرقة في النوم. سيقتله الانتظار قبل أن تعود هيذر... لكن السؤال أخذ يجول في رأسه. ماذا قال لها لورنزو

لتغادر بهذه السرعة؟

ذهب ريناتو إلى مكتبه محاولاً إلهاء نفسه بالعمل، لكنه لم يستطع التركيز أكثر من ساعة واحدة. ورده اتصال هاتفي لكن ذهنه كان مشوشاً فلم يستوعب كلمة واحدة. وما إن اقفل السماعة حتى أذعن للأمر وطلب لورنزو في لندن.

لم ينزل لورنزو في فندق «ريتز» هذه المرة بل في فندق فخم افتتح حديثاً، لأن الشركة كانت تأمل تموينه. طلب ريناتو غرفة لورنزو مارتيلي فأجابه الموظف: «آسف يا سيدي، فالسيد مارتيلي حاسب الفندق منذ ساعات».

تصلّب ريناتو: «هذا الصباح؟ من المفترض أن يقيم أسبوعاً».

ـ بالفعل، يا سيدي. ولكن بعد أن وصلت السيدة مارتيلي أمس، قررا الخروج باكراً.

ـ السيدة مارتيلي؟ أتعني السيدة الإنكليزية الشابة؟

ـ نعم يا سيدي. السيدة هيذر مارتيلي. لقد دفعا حساب غرفتهما هذا الصباح.

كادت الصدمة تقطع أنفاسه. لم يعرف كيف وضع سماعة الهاتف. شعر بخدر في أعصاب يده وببرد في جسده لهول الصدمة.

كان عليه أن يتنبأ بذلك. لطالما سكن لورنزو قلبها ولكنه استمر في خططه غير مبالٍ بالعواقب.

انحبست أنفاسه فجأة وكأن كتلة جليدية ضخمة انهارت عليه فعجز عن صدها. أراد أن يصرخ ويشق طريقه ليخرج، لكنه أحس بالشرك يطبق عليه. لم يأتِ بأي حركة... وود لو يستطيع أن يدير عجلة الزمن إلى الوراء قبل بداية هذا الكابوس. لكنه لم يستطع.

زوجته خانته مع أخيه... اعتقدت أنه سيغيب أسبوعاً، وسارعت إلى لندن لتكون مع لورنزو.

لا، هذا مستحيل. إذا صح ذلك، سيتحطم قلب بابتيستا، ويستحيل أن تؤذيها هيذر. حاول ريناتو اقناع نفسه بأن هيذر لا يمكن أن تخونه. ولكنه،

لسبب ما، حار جواباً.

هيذر؟؟؟ هي صادقة ونزيهة وغير قادرة على الخداع. لكنها كانت تردد مؤخراً على مسامعه: «ما الذي نعرفه أنا وأنت عن بعضنا البعض؟ لا شيء».

- لا شيء.

قطع تأملاته هدير سيارة، وبحركة واحدة أصبح في الخارج فيما انفتح باب سيارة الأجرة وخرج منه أخوه. كان لورنزو الشاب المفرط الأناقة مشعث الشعر!! الشاب الذي يتكبّد العذاب ليعثر على ربطة عنق مناسبة، كانت ذقنه نامية وملابسه مجعّدة.

تشابكت عينا لورنزو وريناتو، فحرك هذا الأخير يده بعجز، مشيراً إلى أنه لا يستطيع الكلام حالياً، ثم دخل المنزل. قال وهو يصعد السلم: «أنا بحاجة إلى الاستحمام».

أشار ريناتو إلى هيذر بأن توافيه إلى مكتبه. وعندما مرت بجانبه سمع دقات قلبه تتسارع، فحياته تتوقف على اللحظات التالية. ماذا سيسأل وماذا ستجيب؟ بادرته أولاً: «ما الذي جعلك تعود مبكراً؟».

- دعي هذا الآن. أين كنت بحق الله؟

أجابت بحدة وقد ساءتها لهجته: «ذهبت إلى لندن».

- من دون أن تخبري أحداً بمكان ذهابك وسببه؟

- كان لدي سبب وجيه.

- هذا مؤكد.

شيء ما في صوته جعلها تنظر إليه بحدّة، فقالت:

- حذار يا ريناتو. أنا متعبة وقد عيل صبري. إذا كان لديك ما تقوله، فقله حالاً.

- حسناً جداً. هل أمضيت الليلة الماضية في غرفته؟

حدّقت فيه بحيرة: «ماذا؟..».

- أجيبي تباً لك. هل أمضيت الليلة الماضية في غرفة لورنزو؟

توهجت عيناها غاضبة.

- نعم. وما الذي ترمي إليه؟

- إنه واضح كالشمس، أليس كذلك؟ فأنت شديدة التعلق به، رغم كل ما فعله بك. أنت حمقاء، وأنا أحمق منك لأنني تزوجتك. ظننتك أروع امرأة في العالم، تجمعين الجمال والأخلاق الرفيعة.. المرأة الوحيدة الصادقة في عالم من الخداع والجشع. كنت أعلم حين تزوجنا، أنك لا تحبينني، ولكنني عللت نفسي بأنه مع الوقت... ولكن ما إن أدرت ظهري، حتى هرعت إليه... إلى غرفته... وإلى فراشه.

- ريناتو...

- هل نمت في سريره؟

فصرخت: «نعم».

وشعر بطنين في أذنيه، كان أشبه بعذاب الاحتضار، إلاّ أنه ما زال حياً ليموت مرتين أو أكثر.

كان ريناتو صقلياً. وفي مجتمعه تتسبب المرأة الخائنة بعداء وثأر قد يستمر أجيالاً... لكن الفكرة الوحيدة التي راودته هي كيف يجعلها تسحب كلماتها، لتعود كما كانت من قبل. فإذا ثبت خداعها، لن يعود هناك في العالم ما يستحق العيش من أجله. سألها بصوت أجش: «هل تعلمين ما قلته للتو؟ لا، لا تجيبي».

ومد ذراعه مضيفاً.

- ربما حان الوقت لتقري بذلك. أو ربما كان علي أن أصغي منذ زمن طويل، عندما حاولت أن تخبريني بأن لا أمل لي... ولكنني لست ماهراً في الإصغاء إلى ما لا يناسبني.

- ريناتو... ماذا تقول؟

انفجر بضحكة قاسية: «أنا أقول إنني أستسلم... وإنك انتصرت... أنت وذلك الغلام الذي خطف قلبك بحيث لم أجد مدخلاً إليه. إذا كنت تريدينه، فخذيه. سأسهل عليك الأمر».

- أتعني أنك ستطلقني لكي أتزوج لورنزو؟ وماذا عن بابتيستا؟

www.elromancia.com

ـ ستكون بخير عندما تراني سعيداً لأجلكما.

ـ وأنت؟.. هل ستكون سعيداً جداً.

لم يجبها بالكلام ولكن الحقيقة بدت جلية في عينيه. كان يحتضر في داخله، وقال بهدوء: «لقد مررت بتجربة مماثلة. ربما حان دوري لأتعلم».

ـ ولكن.. هل ستكون سعيداً؟

ـ هذا لم يعد من شأنك. كان بإمكاننا أن نكون سعيدين، أو على الأقل، هذا ما ظننته. لقد أحببتك، أو على الأقل، هذا ما ظننته. لقد أحببتك، وظننت أنك ستحبينني مع مرور الوقت. لكنني لم أحسب أن قلبك بهذا العناد. لماذا تظنينني طلبت من أمي أن تلعب دور الوسيط بيننا؟ كنت أعرف أن الوقت ما زال مبكراً، لكي تنسيه. لو تقدمت إليك بنفسي، باسم الحب، كنت ستبعدينني عنك حتماً.

ـ لكنك كنت تعلم... أعني أن ثمة أموراً بيننا... حتى حينذاك.

ـ نعم، لكنها رغبة وليست حباً. أحياناً كنت أشعر أنك تريدينني، بجسدك وليس بقلبك. قلبك لم يكن ملكي... ويا ليتك تعلمين كم تمنيّت ذلك... أن أراك تنظرين إلي كما كنت تنظرين إليه. لقد حاولت أن أترك الأمور مجرد صفقة بيننا. ولكن، ذلك اليوم في المعبد... حسناً.

وتنهد، ثم أضاف:

ـ لا يمكنني أن ألتزم دوماً بنواياي الطيبة. وفي كل مرة أظهرت لك فيها لهفتي، كنت أظن أنك سترين وتفهمين، لكنك لم تري قط لأنك لا تريدين ذلك، فأنت لا ترين سوى لورنزو. لقد تحدثنا مرة عن ذلك اليوم في المركب وعما كان يمكن أن يحدث. قلت لي إنك تحبينه، فقلت لك إن الحب يعقد الأمور حتى ولو كان وهماً. لو تعلمين كم دعوت الله حينذاك ليجعلك تقولين إن حبك له كان وهماً. كنت أحبس أنفاسي مترقباً أن.. لكنك لم تفعلي، وأظنني أعرف الحقيقة الآن.

كان وجهه كئيباً. وللمرة الأولى لم ينظر إليها مباشرة، فقد آلمته من الخيانة. مدت يدها فأجفل مبتعداً. لم تستطع أن تتكلم. وركزت بكل

حواسها على ما سيقوله بعد هذا. وقال أخيراً: «كان يجب أن أدعك تذهبين حينذاك، كنا لتجنبنا هذه الكارثة. حسناً، أنا الملام لأنني جنيت على نفسي وليس من حقي التذمر».

فقالت بصوت خافت: «لا أصدق أنك من يقول هذا».

ـ لا؟ حسناً، لم أعد أنا.

وأخذ نفساً مرتجفاً، ثم تابع يقول:

ـ سأسهل الأمر عليك، اذهبي بسرعة فأنا غير واثق مما سأفعله لاحقاً.

ـ ريناتو...

فاشتد شحوب وجهه: «اذهبي بحق الله! أخرجي من هنا ولا تدعيني أراك مرة أخرى أبداً».

* * *

١٢ ـ لماذا أحب الحياة؟

تقدمت منه خطوة وقالت:

ـ لست ذاهبة إلى أي مكان، فأنت زوجي وأنا أحبك، وسأظل معك حتى يفرق الموت بيننا.

فقال بصوت أجش: «لا تعبثي معي، قلت لتوك إنك على علاقة معه».

ـ لم أقل شيئاً كهذا. قلت إنني نمت في سرير لورنزو، الليلة الماضية...

وأمسكت بكتفيه تهزهما قبل أن تضيف:

ـ لكنني لم أقل إن لورنزو كان معي.

فهمس: «ماذا؟».

رثت هيذر لحاله فقالت: «آه، يا حبيبي!».

وتابعت برقة: «يا لك من أحمق، بينما كنت نائمة في سرير لورنزو، كان هو موقوفاً في مقر الشرطة».

ـ ماذا... تقولين؟

ـ لم يكن معي، لأنه أمضى الليل في زنزانة مقفلة نائماً على مقعد خشبي مع بطانية. لماذا يبدو مزرياً برأيك؟ لأنه نام بثيابه أمس.

حدق فيها وكأن كلماتها بددت سحب تعاسته. وفجأة، أشرق وجهه، وطفق يسألها بحذر: «في زنزانة في مقر الشرطة؟».

ـ لقد اتصل بي أمس من مقر الشرطة في لندن. قبض عليه لقيادته السيارة

بسرعة جنونية ولضربه الشرطي، لذا اسرعت إليه لحاجته إلى كفيل. كانت أمي في الخارج، ففكرت بتجنيبها الألم. وهكذا لحقت بأول طائرة إلى لندن. وعند وصولي ذهبت مباشرة إلى مقر الشرطة لكنني لم أستطع أن أخرجه بكفالة لأنهم خافوا أن يهرب من البلاد، وهكذا اضطر لقضاء الليل في الزنزانة. أما أنا فمكثت في غرفته في الفندق لأنني ارتأيت أنه من الحماقة أن أستاجر غرفة فيما غرفته خالية...

ولم تجد كلمات كافية لتصف تلك اللحظات التي أعقبت الحقيقة. فتصريح كل منهما عن حبه جاء على نحو مفاجيء ومن دون وعي منهما. لقد عرفا بأن كبرياءهما كانت ستمنعهما من الإفصاح عنه لسنوات، فامتزجت البهجة بالألم، وقال وهو يهزها:

ـ أخبريني بأن ذلك صحيح، وأنني لن أستيقظ بعد دقيقة....

ـ أقسم بأنني لم أقترب أبداً من لورنزو.

ـ لم أسألك عن ذلك، وإنما عن حبك لي.

ـ أحبك يا ريناتو. ولا أريد سواك لكنني لم أظن أنك ستعترف يوماً بحبك.

ـ وهل يجنّ رجل ما بامرأة، كما فعلت أنا، إذا لم يكن يحبها؟

ـ كانت لديك دوماً مبررات وجيهة وكلها لا تتعلق بالحب.

ـ إنها مبررات وهمية، لأنني أقسمت على عدم الوقوع في حب امرأة إلى هذا الحد مرة أخرى. وإذا بك تدخلين حياتي في توقيت خاطيء لأنك كنت تحبين رجلاً آخر. واضطررت لأن اقنع نفسي بأنني لم أقع في غرامك.

وعاد يهزها مرة أخرى بعنف.

ـ وكنت خائفاً للغاية من...

أفقدتها السعادة عقلها فلم تعد تعي أنها تتحرك، وإذا بهما في الطابق الأعلى، وفاجأها صوت إغلاق الباب بعنف. كانت تشعر معه بالراحة والطمأنينة، واكتشفت أن علاقتهما ضحية سوء تفاهم وقصر نظر. فمنذ دقائق قليلة لم يكن هناك مستقبل لهما أما الآن فأمامهما العمر بأكمله.

وأخيراً قالت هيذر: «علينا أن ننهض فلا بد أن بابتيستا استيقظت وهي تتساءل عن سر عودة لورنزو. ولا أدري ماذا أخبرها، لكنني لن أفضح أمره».

ـ أنت لا تعرفين لورنزو. سيخبرها حتماً بالحقيقة. فمهما كان رأيك به إلا أنه صادق.

ـ هل تدرك كم تدين لصدقه؟

صمت ريناتو وأدركت أن جراحه لم تلتئم بعد وبقي لديهما أموراً يتجنبانها. وأخيراً قال: «أخبريني بقية القصة. هل هرّبته من السجن؟ هل أنتما هاربان؟».

ـ لحسن الحظ لم نفقد الأمل إلى هذا الحد. لقد وكلّت له محام، ومثل في الصباح أمام القاضي. لم تكن القضية خطيرة، فقد تجاوز حد السرّعة ولم يحدث أي سوء لأحد.

ـ وماذا عن تهجمه على الشرطي؟

ـ كانت ضربة خفيفة، فهو لم يكد يمسه. لقد دفع غرامة مالية متعهداً بالالتزام بالنظام. أعلم أن انشغالاته كثيرة في انكلترا لكنني ارتأيت أن أحضره إلى هنا بسرعة.

ـ فعلت الصواب، لأنني لن أعيده إلا بعد فترة. يجب أن يقوم أحد ما بمهامه وأعتقد أنك الشخص المناسب. لذلك ونظراً للنجاح الذي حصدته أثناء رحلتك إلى اسكوتلندا...

ـ ولكنك كنت تراقبني و...

فقاطعها: «لقد ذهبت إلى اسكوتلندا لأنني لم أطق البعد عنك يوماً آخر».

حدّقت به وهي تتساءل عما إذا كان وجود لورنزو في انكلترا قريباً من اسكوتلندا سبباً لسفره ولكنها فضلت تجاهل الموضوع. فما يشعر به نحوها يكفيها.

* * *

بعد عودتها من إنكلترا. بدأت الإعداد لعيد ميلاد بابتيستا الذي سيقام في

منزل الأسرة الكبيرة. وقال لها ريناتو ذات مساء:

ـ تعلمين أنني أفكر في غرس أزهار والإتجار بها... لاسيّما وأن حديقتنا تحوي أزهار نادرة. وفكرت في أن أسلمك هذه المسؤولية.

فقالت بلهفة: «سيسرني هذا كثيراً».

ـ إذاً، عليك أن تجتمعي ببعض الاختصاصيين وأنا أنصحك بهذا الرجل.

وناولها بطاقة تحمل اسم «فنسنزو توردوني»، متابعاً.

ـ لديه أراضٍ شاسعة من المشاتل الزجاجية القادرة على تلبية الحاجة أثناء موسم الشتاء. أريدك أن تلقي نظرة عليه ثم تخبريني رأيك. فإذا كان نتاجه ممتازاً يمكننا أن نطلب منه تزيين المنزل استعداداً لميلاد أمي. وبعد ذلك، نتعامل معه بدورنا.

وبسرور بالغ، قصدت هيذر «فنسنزو توردوني» في مكتبه في باليرمو. كان رجلاً طويلاً نحيلاً في أواخر الستينات يتمتع بشخصية دافئة ورقيقة لذا اكتسب مودّتها على الفور. جال بها في أنحاء المشاتل التي انشأها خارج المدينة فذهلت لروعة الأزهار ولتعدد أشاكلها وألوانها. وأخبرها وهما يرتشفان العصير:

ـ لدي أعمال جيدة في روما، كما أن زوجتي من روما. وكانت تساعدني في إدارتها. وبعد موتها، سلمت مشاتل روما إلى ولديّ ثم عدت إلى موطني.

ـ أنت اذن صقلي؟

ـ نعم. لقد ولدت وعشت هنا ويوماً ما سأموت وأدفن هنا.

واستغرقا في حديث طويل عن أحسن الطرق لاستنبات عرائش ورود طويلة العمر. أحبت هيذر هذا العجوز البسيط وعندما عادت إلى البيت سرّها أن تخبر ريناتو بأن أزهاره صالحة للتصدير وأشارت إلى أنها تنوي التكفّل باتتاجه من صقلية وروما معاً، كما أنها طلبت منه الاهتمام بحفلة بابتيستا.

أمضت بابتيستا يومها في النوم استعداداً لحفلة المساء، فاستيقظت مشرقة، براقة العينين. وجلست بهدوء فيما كانت خادمتها تضع لها عقد

اللؤلؤ.

عندما أطل كل من ريناتو وهيذر، أمسكت بيده وقالت بتوسل:

ـ بني قد يكون هذا آخر عيدٍ لي.

فقال بحنان: «ماما... أنت تقولين هذا كل سنة».

ـ ولكنني أتوق هذه السنة إلى هدية أغلى من أي شيء آخر.

ـ أطلبي ما تشائين.

ـ أريدك أن تمحو الحقد من قلبك على أخيك.

ـ لقد تلاشى ذلك منذ زمن طويل.

ابتسمت بابتيستا ولكن هيذر أحست بأنها كانت تأمل في شيء آخر.

وسمعوا طرقاً على الباب، ثم دخل برناردو ولورنزو ليشربا نخب أمهما على انفراد قبل الحفلة.

فجأة أعلن ريناتو: «سأشرب نخب أخي لورنزو الذي أدين بسعادتي لشجاعته وصدقه. لقد ارتكبت غلطة فظيعة عندما أردت تزويجه. كنا نعلم جميعاً أن هذا الزواج يجب ألاّ يتم ولكننا رضخنا للأمر الواقع. رجل واحد فقط وجد الشجاعة لمواجهة الحقيقة وهو أخي. لقد منحتني يا لورنزو المرأة التي أحب، ولهذا أشكرك من كل قلبي».

ردّت هيذر بسعادة: «وأنا أيضاً».

وشرعت بابتيستا تبكي من البهجة. نظر لورنزو من حوله وقد غمره الإرتباك، فيما وضع ريناتو كأسه جانباً واحتضنه، وربت برناردو بيده على كتفيهما.

همست هيذر في أذن ريناتو: «شكراً».

ـ كان علي أن أقول ذلك منذ زمن طويل.

* * *

حل موعد الحفلة، فدخلت بابتيستا متكئة على ذراع ريناتو، وسط تصفيق الضيوف. جعلها شذا الأزهار تشهق بالسرور.

ـ إنها أزهار رائعة، يا أعزائي. شكراً.

وجلست على كرسي أشبه بالعرش أعدّ لها خصيصاً.

وقال ريناتو: «الرجل الذي نسّق الأزهار يريد أن يقدم لك التهاني بنفسه».

ـ هذا لطف بالغ منه.

بان التردد على ريناتو فأضاف متمهلاً: «ولكن... يا أمي، هل أنت قوية بما يكفي لتتلقي الصدمة مع أنها ستكون مفاجأة سعيدة؟».

ـ بكل تأكيد. لكن هل سيسبب لي «توردون» صدمة؟!

ـ أظنه قد يفعل.

أومأ ريناتو برأسه، ففتح خادم الباب، ليدخل فنسنزو بقامته الطويلة، وتوجّه بهدوء نحو بابتيستا مركزاً نظره عليها.

تعلقت عينا بابتيستا بالقادم. رأتها هيذر تنهض قليلاً عن مقعدها، ثم تسقط عليه بشهقة خفيفة. ورفعت يدها إلى عنقها عندما أصبح فنسنزو أمامها، حاملاً بيده وردة حمراء رائعة الجمال.

لم يبدُ على بابتيستا انها رأت الوردة، فكل انتباهها منصب على وجهه العجوز. وأخيراً صرخت بابتهاج، غير مصدقة: «فيدي! فيدي! غير معقول. لا يمكن لهذا..».

فرد ريناتو بابتسامة عريضة: «بل هو صحيح، فاسمه الحقيقي هو فيديريكو مارسيلو. كان جدي رجلاً مهيباً ولكنه ليس متوحشاً كما كان يعتقده الناس. صحيح أنه نفى فيديركو من صقلية وأرغمه على تغيير اسمه لئلا تتعقبه أمي، لكنه في المقابل أمدّه بدعم عن طريق أصدقائه لتحسين أعماله».

ـ وكيف وجدته؟

ـ أوكلت تحرياً خاصاً اقتفى أثره إلى روما، وصولاً إلى هنا. وعندما ذهبت لرؤيته كنت واثقاً تقريباً من هويته، ولكنني تأكدت من ذلك من خلال الحديث الذي دار بينكما.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

رمقها ريناتو بنظرة غريبة: «ربما أردت أن أفاجئك أنت أيضاً. ولا أدري

إذا نجحت».

ـ نعم. كنت ظننت أني أعرفك. لكنني لم أتصور قط أن بإمكانك أن تفكر في هذا.

نظر إليها: «لكي تعرفي شخصاً ما، عليك أن تقضي معه الحياة برمتها يا حبيبتي».

فهمست: «ونحن أمامنا الحياة كلها».

ـ أحقاً؟

ـ نعم. لم أكن واثقة من قبل، لكنني واثقة الآن.

تملكتها البهجة لما اكتشفته الليلة. ريناتو رجل صعب والحياة معه لن تكون سهلة أبداً إلا أنه ينظر إلى الحب من زاوية تحلم هي باكتشافها.

شعرت بغصة في حلقها وهي ترى بابتيستا وفيدي جالسين يداً بيد. وبهدوء بالغ، تسللت وريناتو إلى جوارهما فسمعا فيدي يقول: «عدت إلى صقلية لأكون قريباً منك. ولكنني لم أجرؤ قط على الأمل بأن تعرفينني».

فقالت بابتيستا ودموعها تنهمر فرحاً: «لقد عرفتك على الفور».

ـ وأنا كنت سأعرفك أينما كنت، فصورتك محفورة في قلبي.

ـ طوال هذه السنوات وأنا أرجو من الله أن يخفف وحدتك. أفضّل التفكير في أنك عشت حياة سعيدة حتى ولو من دوني.

ردّ فيدي بحزم: «كانت زوجتي امرأة رائعة. أنجبنا ولدين ممتازين وبقينا مخلصين لبعضنا البعض حتى وافتها المنية».

ثم تغيّر صوته، حين أضاف:

ـ ولكن حبي لها لم يكن كحبي لك.

وافقت بابتيستا: «أحبك. وهذا بالضبط ما حصل معي».

وردّ قائلاً: «لقد أدّينا واجبنا نحو الآخرين، والآن ربما علينا أن نفكر في أنفسنا خلال الوقت المتبقي لنا في هذه الحياة».

***

غادر الضيوف وبات المنزل هادئاً عندما تشابكت يدا ريناتو وهيذر

وصعدا معاً السلم المظلم. قالت هيذر متعجبة: «هل يعنيان ذلك حقاً؟».

ـ ما زال يرى فيها صورة المرأة التي شغف فيها في الماضي.

ـ أو لعلهما يريان بقلبهما فقط.. وهذه هي الحقيقة التي لا يمكن للزمن أو لخطوط السنين أن تغيرها.

ـ هل سنكون نحن كذلك؟

ـ يمكنني فقط أن أقول من جانبي بأنني لن أحب امرأة سواك حتى ولو مت غداً واضطررت لقضاء الدهر وحيداً. بالنسبة لأمي وفيدي سارت الأمور بشكل مختلف بينهما، لذا كان لا بد لدربيهما أن يتقاطعا أخيراً حتى لو اعتبر البعض أن الأوان قد فات. وإذا فارقت الحياة، فسأنتظر دوري كمسافر في المحطة لكي استقل قطار الحياة الأخرى إليك.

ـ وأنا...

فوضع يده على فمها: «هس. لا تقولي شيئاً».

ـ أتظنني أحبك أقل؟

ـ أنا لا أسأل ما دمت تحبينني قليلاً.

لقد تبددت غطرسة ريناتو وملأه الحب بالثقة والتفاؤل بالحياة.

وهمست: «لأنك عمري، أحببت الحياة».

***

في سكون الليل، أنصتت بابتيستا إلى وقع خطى بطيئة تصعد السلم وتسير في الممر. أمام باب غرفة ريناتو وهيذر توقفت الخطوات والتقطت أذنا بابتيستا المرهفتين تمتمة أصوات رقيقة وأغلق الباب.

ابتسمت لنفسها في الظلام. لقد كانت مصيبة في جمعهما. وعندما يحين رحيلها، سترحل بسلام، عالمة بأن ابنها وجد الحب الحقيقي الأبدي.

اليوم، بات لديها الكثير لتعيش من أجله؟ طفل هيذر الذي يتكوّن في أحشائها من دون أن تدري. لعلهما يرزقان بطفلة تحنن قلب أبيها.

ولكن، ريناتو فاجأها بشخصيته المرهفة التي كان يخفيها عن الجميع

بمن فيهم زوجته. من كان يظن أن ريناتو هو الذي سيعيد فيدي إليها، وأنه سوف يتفهم...؟؟

مهما كان مشوارها قصيراً، إلا أن فيدي تعهد بملازمتها وبزيارتها كل يوم وسيجلسان معاً عند الغروب يتحدثان. لقد شاخ فيدي وتغضن وجهه الجميل لكنها وجدت أن عينيه لم تشيخا.

أغلقت بابتيستا عينيها المتعبتين من فرط الإثارة ونامت قريرة العين. فغداً... يوم آخر وفجر آخر في حياتها.

***

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة